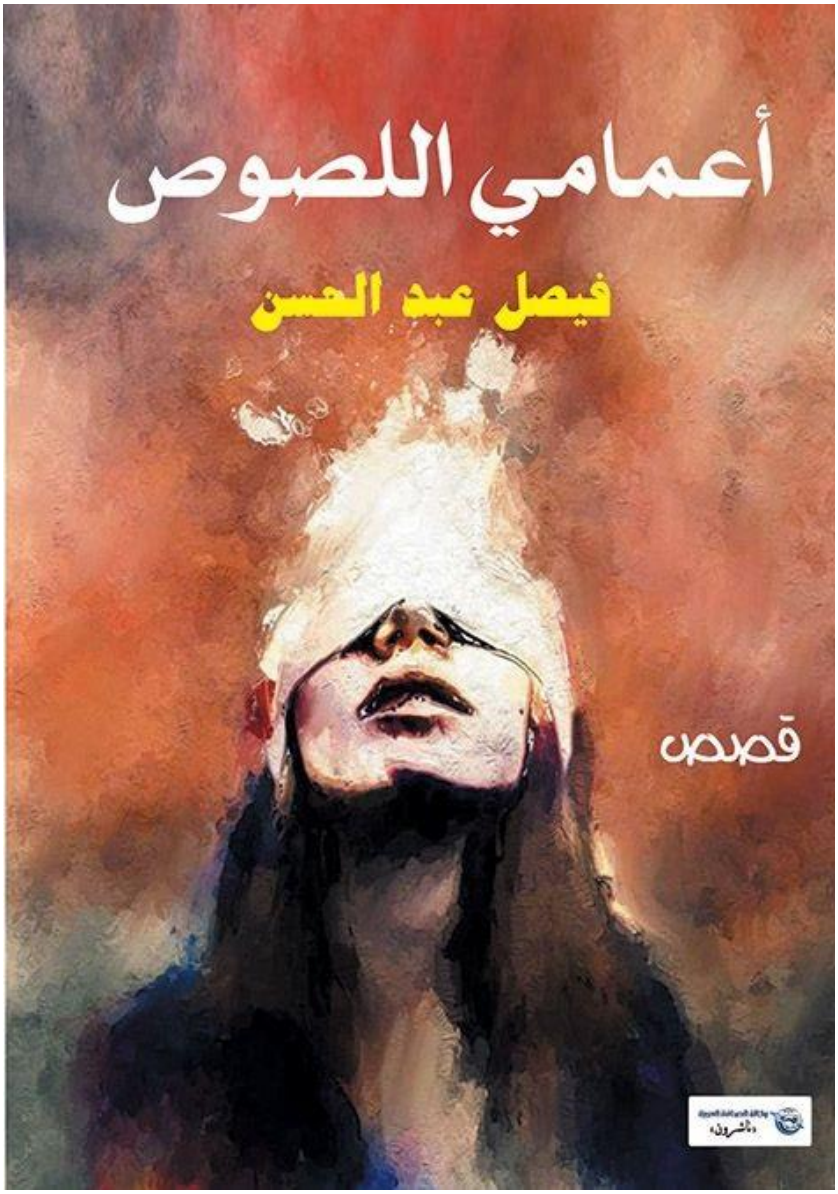
أعمامي اللصوص
فيصل عبد الحسن
قصص

أعمامي اللصوص

قصص

فيصل عبد الحسن

الكتاب: أعمامي اللصوص (قصص)

الكاتب: فيصل عبد الحسن / كاتب من العراق

الطبعة: 2019

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميـع الحقـوق محفوظـة: لا يسـمح بإعـادة إصـدارهـذا الكتـاب أو أي جـزء منـه أوتخزينـه في نطـاق اسـتعادة المعلومـات أونقلـه بـأي شـكل مـن الأشـكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دارالكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

عبد الحسن، فيصل

أعمامي اللصوص – (قصص) / فيصل عبد الحسن

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولى: **978 –977 –446 – 264 – 5**

أ – العنوان رقم الإيداع : **22843 / 2016**

أعمامي اللصوص

الجزء الأول

العـين

(1)

بعد أن ضعفت الحكومة المركزية قويت شوكة الأطراف والمدن الصغيرة وقل الأمن في البلاد وأخذت تظهر مجموعات من ميليشيات الحزب الحاكم وبأيديهم بنادق ومسدسات عليها أرقام حكومية بالبوية البيضاء ويأخذون

من الأغنياء الإتاوات ويستولون على ما يحمله الفقراء من أمتعة ومال قليل وينهبون أيضاً أوراقهم الشخصية ويتركونهم بعد هذا في العراء الموحش خالين الوفاض لاطمين رؤوسهم بأكفهم ناحبين بأصوات شجية سائلين المولى العزيز الانتقام من القوم الظالمين ،

وشاء لي عملي البغيض في إحدى ميليشيات الحزب ذاته في الأطراف وفي هذا الجو الموبوء أن أسافر مرات كثيرة من مكاني النائي قاصداً بغداد قبلة أنظار أهل البلاد وقاضية حاجاتهم ، وأنا أعلم بما حدث ويحدث في هذه العاصمة الواسعة من انعدام للأمن وفقر وخوف وأمراض معدية، وراعني ما راعني في أول سفرة لي على هذا الطريق الصحراوي ارتفاع أجرة النقل التي ارتفعت في فترة قصيرة ومرات كثيرة ، فصار الكثير لا يستطيعون دفعها كاملة ، فاقتعد الفقراء سقوف الحافلات القديمة تحت لفح الهواء الساخن وأشعة الشمس اللاهبة وحرارة الحديد التي لا تُحتمل ، أو الانطراح في المماشي مع الأمتعة بين صفي الكراسي بأجرة مخفضة بالرغم من مهانة الجلوس بين الأقدام والتحديق أسفل الكراسي وتحمل سخونة ولهيب صفيح الأرضية ، وضرب المارّين لرؤوسهم بأطراف الأحذية عند كل محطة تقف فيها الحافلة ، لتتزود بالماء والوقود أو لقضاء حاجة مستعجلة من حاجات ركابها الكثيرين ، أو مغادرة البعض لانتقاء الغرض من الرحلة و الوصول إلى مدنهم وقراهم ، ولا يسمح السائق بطبيعة الحالة أن يشغل أحد من أهل أرضية وسقف السيارة تلك الكراسي الشاغرة بنزول ركابها بل يفرض ثمناً آخر أقل مما كان لكنه أيضاً لا يغري المهانين

بأن يتنازلوا عن مهانتهم لدفع المبلغ الإضافي ، فيبقى الحال على ما هو عليه، والكراسي الشاغرة تنتظر من يستطيع دفع أجورها المرتفعة ، واستطعت أنا النهاب العريق للمال الحرام أن أدفع أجرة الجلوس على كرسي قديم بوسادة للرأس في مقدمة السيارة لما تتطلبه مهمتي الكريهة من قرب للسائق الذي انتصبت فوق رأسه صورة كبيرة لـ"رئيس الجمهورية" وقد رفع بكلتا يديه مسدساً ضخماً صوب السماء وأطلق عبوة خلفت دخاناً أسود لا يتبدد ، وجاء جلوسي إلى جوار سيدة عجوز دائمة التمخط والتجشؤ والتعوّذ والبسملة ، شديدة الولع بمتابعة ما يجري على الطريق من خلال زجاج النافذة ، وهي تخفي في صررها الكثيرة أسفل قدميها الطعام وأنواع الفاكهة ، فهي تمد يدها تحت العباءة وتستخرج شيئاً ربما كان قطعة قماش أو كيس نايلون ، فتفك عقدته متلذذة بنظرات الحرمان الخاطفة التي يوجهها لها بعض الراكبين وتلتهم كالصقر شيئاً يملأ فوديها الممصوصين وبعد فترة تعيد ربط كيسها وإيداعه في حجرها، لفترة ثم تعيد فتحه من جديد وتأكل بنهم شديد ، وبعد أن ينفذ تعيدة إلى أمتعتها بحركات عنيفة من ذراعيها ورأسها نادبة حظها بصوت خفيض ، وتستخرج غيره مملوءاً ، فتنشغل لحظات بحل عقدته وازدراد ما فيه بعد ذلك ببطء شديد ، ولذة ما بعدها لذة ، متابعة قوافل الركائب التي تشق طريقها في الصحراء بموازاة طريق السيارات المعبدة وعلى ظهورها ستائر ملونة وأحمال كثيرة وبدو بلحى مثلثة صغيرة سوداء وعيون خرزية ترمق السيارات المارقة برهبة ، وطريق الدمن الذي خلفته

قبلها الركائب المارة وأشجار الغضا والأرطا المفردة هنا وهناك في الطريق الصحراوي متسربلة بالسراب والحرارة والفضاء الواسع.

(2)

فجأة بدأت العجوز تتقيأ بصوت مسموع وهي تخفي رأسها بالعباءة ، ولم أفهم في البداية اللغط الذي تناقله الراكبون ، وتكرر تقيؤ السيدة العجوز وإخفاؤها لناتج فعلها القبيح بين قدميها ملطخة صررها وأشياءها ، وأخذ اللغط والهمس يتحوّل إلى كلام مفهوم ، وسمعت من أفواههم أن مرض الكوليرا ينتشر هذه الأيام مثل النار في الحصار اليابس في بغداد والكثير من المدن الأخرى ، فهالني الخبر ، وأرعبني الجلوس قريباً من سيدة كثيرة التقيؤ وذلك طبعاً من علامات الداء المميت ، ولكن ماذا يفعل نهاب مثلي تضطره مهمته – كعين – الجلوس قريباً من السائق ؟ وأخذت أراقب عيون الجالسين التي كانت تنظر صوبي بإشفاق نظراتها إلى ميت ، كأنها تعزيني بمصابي القادم لا محالة ، وحاولت بشكل غريزي أن أحرك جسدي بعيداً عن تلك العجوز الموبوءة ، ولسوء الحظ كان أحد الشيوخ إلى الجانب الآخر من صفناً مسكوناً بهاجس المصاحبة ، وهي عادة سيئة أعرفها إذ يشارك المرء من يتقيأ مصابه فيعمد إلى التقيؤ هو الآخر دون عّلة حقيقية غير هاجس المصاحبة كفعل لا تبرير له ، ومع لفح الرياح وحرارة الشمس ارتفعت في جو السيارة الخانق رائحة زنخة ، وكلما تقيأت تلك العجوز استجاب الشيخ لندائها القبيح متقيئاً

هو الآخر بكثير من الشدة والحميمية والأخوة الروحية ، ووضع الناس أيديهم على أنوفهم وأزادوا من دفع زجاج النوافذ إلى آطرها لإتاحة أكبر فتحة للفح الهواء الصحراوي لتنقية جو السيارة الخانق ، وراح الحديث عن مرض الكوليرا يستهوي الجميع ، فراحوا يعددون علاماته والمدن التي أُصيبت به وانعدام الدواء الشافي ، والمياه الملوثة ، وهمسوا لبعضهم البعض باعتماد الحكومة خطة قبيحة لحرمان الناس من العافية لتضغط بذلك على دول العالم لفك الحصار الاقتصادي ليستفيد بعد ذلك أهل الحكم في البلاد من عائدات النفط ونهب القسم الأكبر منها وتحويلها إلى ثروات طائلة في حساباتهم الخاصة.

(3)

تحسنت حالة العجوز قليلاً بعد أن تقيأت كل ما التهمته من طعام منذ الصباح الباكر وهمست لي من وراء العباءة التي ترفع طرفها بوجهي جاعلة من ذلك ستراً بينها وبيني فلا أرى وجهها ، قائلة إنها لا تطيق رائحة البنزين التي تصدر باستمرار من محرك السيارة ، وهو السبب الأول والأخير فيما حدث لها ، وأردت أن أخبرها أن الحافلة تستخدم الكازولين وليس البنزين ، لكنني قلت في نفسي إن ذلك لا يغير ما حدث ، وبحثت عند أسفل قدميها عن شيء ما ، ورأيتها تظهر من ثيابها

زجاجة ماء وتضع فوهتها في فمها وتتمضمض وتلقي ما في فمها من النافذة.

(4)

قرب قبة صغيرة خضراء ، مثلمة الطابوق ، مطلية بطلاء قديم تساقط قسمه الأسفل بفعل الرطوبة ، شخر محرك السيارة وبربر وارتجف هيكل السيارة القديم ، ونزلت العجلات عن الشارع المبلط وتمايل الجسم المعدني الضخم ثم توقفت الحافلة ، وهرع باتجاهها أطفال حفاة كانوا يلوذون بظلال قبة الولي وفي أيديهم بطيخ شديد الاصفرار ، وخرج من مقام الولي رجل شاحب الوجه وعلى كتفيه عباءة سوداء خفيفة وعلى رأسه عمامة بيضاء وفي كفه مسبحة سوداء طويلة ، ووقف يتأمل الحافلة التي أثار وقوفها موجة من الغبار ، والتفت السائق صوبنا وهو يغادر كرسيه معلناً أنه سيتوقف لبعض الوقت ، فهرع الركاب للنزول لتغيير الجو وتحريك الأقدام ، ونزلت بدوري فرأيت ركاب السقف المساكين وقد شوتهم الشمس بين الحقائب والأمتعة متحلقين على شكل قوس وحول رؤوسهم الشماغات الحمراء ومناديل الحمامات الحائلة الألوان ، وأخذت أراقب النازلين من الحافلة وحافظات مالهم وهم يستخرجونها من جيوبهم لشراء حاجة أو للتأكد من سلامة وجودها، وكنت أقول في نفسي إنها تحوي مالاً كثيراً، الحمد لله ما زال الشعب يرفل بالخير ، وأبحث كأي عين جيدة التدريب عن السلاح الذي – ربما – حمله الركاب فيما يحملونه من متاع ، ورأيت جنوداً بملابسهم الرسمية القديمة

ولكنهم بلا سلاح وأفراد شرطة كذلك ببزاتهم الرسمية الحائلة اللون إلا أنهم كانوا خارج أوقات عملهم الرسمي وبلا سلاح أيضاً ، شعرت بالارتياح وخمنت أن سفرتي ستكون موفقة وبلا مشاكل كبيرة بإذن الواحد ، وزرت قبر الولي واستغفرت الله كثيراً عن عملي البغيض ، ووجدتُ العجوز عند رأس الولي تبكي بدموع مدرارة وهي تحدثه بهمومها كما لو كانت تراه جالساً أمامها وهي بأحسن حال ولم يظهر عليها ما ينبئ أنها مصابة بالكوليرا حقاً ، كما رأيت الشيخ الذي تقيأ أمعاؤه قبل ساعة يأكل مع حفيده بطيخاً ذابلاً إلى جانب الطريق ويلقي بحمولة جوف البطيخ من البزر إلى جوار جدار الولي ، وثمة نخلة جرداء وحيدة أمام قبر الولي جلس في ظلها عدد من الأكراد المسنين بسراويلهم الواسعة ولحاهم الأثيثة ، وقلت مع نفسي: كل شيء في وضع حسن ، ولا يغير المصير المحتوم إلا صاحب المصير ، كان قبر الولي كما أعرف من رحلاتي السابقة على هذا الطريق هو آخر محطة آمنة ، وبعدها تجئ الصحراء الشاسعة ، المريبة التي لا شيء فيها غير الطناطل [1] ومقاطع مجتزأة من أفلام رعاة البقر ، وحتى أشجار الأرطا والغظا والسدر ستغرق في قتامة المنظر وسف الرمال ، وقد عرفت فيما عرفته من أسرار رحلتي الحالية إخفاء السائق لأجرة الراكبين في حقيبة كبيرة جعلها في مكمن خفي تحت كرسيه وجلس عليها وهو لا يغادر مكانه إلا وأخرجها من موضعها الخفي ووضعها تحت إبطه كأنما يحمل رضيعاً عزيزاً عليه ،

) مخلوقات أسطورية تبدل أشكالها في التراث الشعبي العراقي .[1](

واطمأن بالي على أن رحلتي ستنتهي عما قريب بالسلامة وطيب الخاطر ، لأبدأ بعد أسابيع رحلة العودة من جديد.

(5)

تحركت الحافلة من جديد بضجيج وبربرة محركها فأخرجت شماغي من حقيبة اليد الصغيرة التي أحملها ونشرته على كتفي بانتظار اللحظة الحاسمة ، ورأيت العجوز تعود لعادتها في الأكل من الصرائر العديدة التي ملأتها بمشتريات جديدة وقريباً من التواء الشارع بين طيات الصحراء الواسعة ، كان أصحابي يبدون لي من بعيد مثل نقاط سوداء أخذت تكبر وتتوضح معالمها ، كانت بأيديهم إشارات وقوف مرورية حمراء وراح السائق ببطئ سرعة سيارتنا وفي عينيه شك عميقة وخوف غريزي ، ثم أخذت تتوضح أمام عينيه الأسلحة المشهرة باتجاه السيارة ، وهنا جاء دوري لأقول للسائق جملتي المكررة في كل رحلة من هذا النوع : "نقطة سيطرة عسكرية !".

وأكملت بقلق ولكن باستماتة من أجل أن يصدقني :

"أمس وضعتها الحكومة لمراقبة الطريق ، مررت أمس من هنا وتوقفنا عندها للتفتيش !".

وككل مرة شعر هذا السائق أيضاً بالأمان وقلل من سرعتها حتى توقفت إلى جانب الطريق وصعد الناهبون مع سلاحهم ، وككل مرة نحينا السائق

من مكانه وجلست بدلاً عنه لقيادة الحافلة ، ووجه أصحابي سلاحهم الملطخ ببوية الحكومة إلى وجوه الركاب المرعوبين فيما قدت الحافلة بعيداً عن الشارع العالم صوب عمق الصحراء حيث ينتظرنا آخرون لفتح العجلات والأجزاء من محرك السيارة ويشرع الباقون من إخواننا بسلب الركاب ما يحملونه من مال وأمتعة.

الجثـــة

المشكلة الحقيقية التي واجهت مقاول المكائن المستهلكة ، لم تكن في كمية الأجهزة والمعدات والسيارات التي أعطبتها الحرب واشتراها مع إخوته في المزاد العلني، لغرض الاستفادة من بيع أجزائها بالمفرد بل إنَّ المفاجأة الكبيرة التي أدهشتهم كانت في اكتشافهم بين هياكل السيارات المحترقة جثة طيار أمريكي، لم يبق في البدلة منه سوى بقايا لحم متفسخ

وجمجمة بيضاء عليها نتف من شعر أشقر ورائحة بيض فاسد لا سبيل إلى مواجهتها بوجه مكشوف،

لم يصدق أبو جابر في البداية حكاية أخيهم الصغير وهو يجيئهم بوجه أبيض من الخوف ، نكت أبو جابر الطعام من كفه وطلب منه إعادة رواية ما سمع ، ومسح بعصبية كفه المبقعة بلون المرق وبقايا الخبز المديوف والدسم بطرف ثوبه دون أن يشعر فأعاد الأخ الأصغر ما رواه:

"صعدت إلى المقطورة السالمة للبحث عن إطار سيارة احتياط فوجدت جثة الأمريكي تحت المشمع الأسود".

سأله مرتبكاً:

"هل رأى أحد غيرك تلك الجثة؟"

كان الأخ الأصغر قد خدم في الجيش وسرح منذ أشهر قليلة وقد بدت على وجهه آثار شظايا صغيرة سوداء ورثها عن قنبلة عنقودية قتلت العشرات من الجنود وقد زاد القلق البادي على وجهه من سواد تلك الدمامل المدببة :

"أخبرتُ أخانا سعدون وقد سبقنا إلى المقطورة".

وضع أبو جابر شماغة على رأسه بعد أن عدله بسرعة ووضع عقاله فوقه ودفعه إلى الخلف ليكون راكزاً وسمعه الأخ الأصغر وهو يغسل يده من ماء البرميل الموضوع عند باب الديوانية وسمعه يتمتم:" مصيبة ووقعت

على رؤوسنا" تبع أخاه في الطريق المؤدي إلى فسحة الأرض التي جعلوا منها مخزناً في العراء للأشياء المعطوبة التي يشترونها وبموازاة الطوفة الترابية كانت ثمة ظلال متحركة وثلاثة كلاب تمرق من فجوة الجدار ونخلة تميل بجذعها المسود ، الذي بدا وكإنّما أحرقته نار لاهبة منذ أشهر قليلة ، لكنها لم تمنع الحياة من الدبيب فيه ثانية بسعفات بضة تداعبها نسمات الظهيرة ، لم تكن بينه وبين الأخ الأكبر سوى خطوات قليلة حين سمعه يسأل من جديد: " أمتأكد أنت من الذي قلته؟ ".

"نعم" .

التفت أبو جابر من جديد ووقف مستفهماً بعد أن خوص بعينيه وارتجف فكه الأسفل وكان الأخ الأصغر يعرف أخاه حين يكون منفعلاً من ارتجاف الفك الأيسر :-

"أجل إنّه أمريكي .. بعلمه المخطط ونجومه الكثيرة".

"ألم يلاحظ غريب تلك الجثة؟".

"أخبرت أخانا وطلبت منه التكلم حتى نسألك الرأي".

تمتم أبو جابر بحزن:

"مصيبة وحلت على رؤوسنا".

قال الأصغر :

"ما ذنبنا في الذي حدث ؟".

نظر إليه أخوه نظرة تأنيب قبل أن يقول له :

"منذ أمس وشيء ثقيل يجثم على قلبي .. لقد عرفت الآن سبب ذلك الانقباض".

مشيا من جديد صوب كومة الحديد المستعمل ، التي بدت من مكانهما كومة كبيرة لا حد لاتساعها ، مثل مزبلة كبيرة لهياكل السيارات المحروقة وأجهزة التبريد الضخمة المعطوبة ومضخات المياه وأجزاء من توربينات منهارة وأحشاء بدالات إلكترونية متناثرة هنا وهناك وأسلاك ملونة: صفراء وخضراء وحمراء مجدولة وعلى مئات الأمتار المربعة انتشر خراب الأجزاء الميكانيكية والكهربائية تتخللها الأسلاك والأجزاء الصغيرة مبعثرة.

أشار الأخ الأصغر إلى المقطورة فوضع أبو جابر شماغة على كتفه وحاول تسلق المقطورة من جهتها اليسرى فبرز وجه أخيهم سعدون من فوق المقطورة وقد غطى نصف وجهه بشماغة ليخفف عنه رائحة التعفن.

"أبو جابر من هنا .. ضع قدمك وأمسك بهذه الدرفة ، واعطني بعدها يدك لأسحبك "

"أرأيت الجثة؟ ".

لم يجب سعدون ، تسلق الحاجز المعدني ومد يده لأخيه وسمع الأخ الأكبر يتمتم مع نفسه :

"احترق شيب موتانا ".

بصعوبة تسلق إلى المقطورة التي تسلقها الأخ الأصغر قبله بسهولة وسمعه يسأل بلهفة :

"أين هذه الجثة؟ ".

نظر سعدون بعيني أخيه الكبير :

"تحت ذلك المشمع الأسود ".

كان في جوف المقطورة غطاء سميك كالذي يستعمل لغطاء الحمولات وقد تجمع ذلك الغطاء بترابه وزيته في الركن ، اقترب أبو جابر من الغطاء وكأنما يكشف عن كومة حيات دفع الغطاء بسرعة ورماه إلى الجوار ، فبانت الجثة : كومة لحم متعفن مغطاة بآخر ما توصلت إليه التكنولوجيا العسكرية ، غطاء للرأس يمتلئ بالمصابيح المطفأة وعينا الطيار تحوّلتا إلى تجويفين يمتلئان بسائل خابط شديد الكثافة ، وبين عظام الأصابع المغطاة بقفاز أسود جهاز صغير بعمود من النحاس والجهاز مازال يعمل مرسلاً ذبذبات لها صوت خفيض والحشرات ما زالت تفترس الجثة وفي الحذاء عند العقبين نجمة حديدية تدور حول محورها وتتصل بسلك يختفي أسفل البدلة ويختلط بصديد جوفه ويغيب في جهاز صغير بحجم الكف علق عند صدر البدلة وفي حزام البدلة علق مسدس غريب بماسورة طويلة من

الفضة وإلى جانبه جهاز آخر يشبه مصباحاً يدوياً ولكن بزجاج معتم وأزرار حمراء كثيرة تنتشر عند قاعدته وحول العنق الذي افترسه التحلل والحشرات ربطة عنق غريبة امتصت الكثير من الصديد وتصلبت متحولة إلى قطعة من الكارتون السميك وفي جيب الساق خرائط كثيرة عليها إشارات حمراء امتزجت بدم متيبس وشعر أشقر وإلى جانبه أكثر من حقيبة يد صغيرة مفتوحة تمتلئ بأجهزة صغيرة غامقة اللون مملوءة بالأزرار وشاشات العرض الإلكترونية ، طارت ذبابة زرقاء كبيرة وامتلأ منخاره برائحة التعفن المؤذية ، لم يستطع أبو جابر إكمال فحصه للجثة وقال مرتجفاً :

"كم كان غريباً بأجهزته حين كان حياً .. انظر العلم في بدلة الطيار التي يرتديها !".

وردد أبو جابر بيأس :

"احترق شيب موتاي".

"ما الذي يخيفك في كل هذا ؟ إنَّها ليست إلا جثة ؟".

"إنكما لا تفهمان ، لا تفهمان".

قال الأخ الأصغر وهو يتتبع خيطاً متيبساً من الدم عند نهاية المقطورة :

"سقط أول الأمر هنا ، أو أنَّه تسلق المقطورة وزحف حتى وصل إلى الزاوية وتغطى بذلك الغطاء خوفاً أو أنّه كان يعاني من جراحاته والبرد وقد حاول في البداية إسعاف نفسه بهذه اللفافات المرمية هنا وهناك".

قال سعدون مقاطعاً : " والآن ماذا نفعل ؟ "

برك أبو جابر كأنما حلت فوق رأسه كل مصائب الدنيا ، ثم قال بعد قليل :

"ندفنه ، أجل ذلك ما ينبغي فعله ودون تأخير ! "

سأل سعدون : " ألا نخبر السلطات ؟ "

نظر أبو جابر صوب أخويه وقال ساهماً :

"ستحط على رؤوسنا المصائب ، قلبي يقول لي أن ندفنه ونقطع خبره ذلك أفضل !".

تدخل الأخ الأصغر : "ربما يا أخي نفيد أحداً بأخبارنا بأمر هذه الجثة".

ومن جديد هبت رائحة العفونة فملأت أنوفهم وأعاد سعدون وضع طرف شماغة على نصف وجهه الأسفل : "لا أرى سبباً في تورطنا بدفنه دون أن نخبر السلطات!".

بصوت أجش قال أبو جابر وهو يتهيأ للوقوف :

"علينا أن ندفنه ، لا تمسا شيئاً فربما كانت قنبلة فيما يحمله في حقائبه من ذخائر تنفجر حالما نمسه أن نحركه!".

سعل أبو جابر سعلة معبرة جافة :

"لنترك هذا المكان ونفكر جيداً قبل أنْ نحزم أمرنا".

وتمتم بعد ذلك بلازمته التي يكررها دائماً :

"احترق شيب موتانا من أين جاءت هذه الجثة لتسود علينا عيشتنا !".

تبادلوا الرأي طويلاً وبالرغم من أنَّ أبا جابر كان يشير عليهما بدفن الجثة دون إعلام أحد إلا أنَّ الرأي استقر أخيراً على الإبلاغ وبمضض وافقهم الأخ الأكبر.

في اليوم التالي على الإبلاغ انقلبت الدنيا في قرية المنيصير !.

عشرات السيارات الصغيرة الموشومة بعلامة الصليب والكاميرات المحمولة والأجانب من كل لون وهيئة والعدسات تصور كل شيء وأجرى حاملو الكاميرات لقاءً سريعاً مع عائلة أبي جابر وكان اللقاء يشبه أسئلة التحقيق في جريمة قتل وفي اليوم التالي لذلك الحدث طلعت الصحف في واشنطن وباريس ولندن تحمل صورة أبي جابر وإخوته وتحت الصور كُتب بخط عريض : لنقتص من القتلة ! إنّهم يعذبون الأسير الأمريكي لأشهر طويلة قبل الإجهاز عليه خنقاً ! المطلوب إلقاء القبض على القتلة ومحاكمتهم أمام القضاء الدولي !! ".

لم تمض سوى ساعات حتى طارت لجنة من مراقبي مجلس الأمن تطالب بتسليم الأخوة الذين قتلوا الأسير الأمريكي وتساءل صحفي في برنامج تليفزيوني على وجه العدالة في تسليم مَن قتل الطيار ، وهو الذي خلف دماراً لا يمكن وصفه في الأحياء المدنية وحين نقلت الجثة بواسطة سيارات الصليب الأحمر اعتقد الأخوة أنّ الموضوع قد انتهى ، لكن فرحتهم لم تدم إذ إنَّ أسماءهم تصدرت نشرات الأخبار العالمية كمتهمين في عملية قتل بشعة !! .

كان أبو جابر يمزق جزءاً من ثوبه كلما سمع اسمه يرد في نشرة أخبارية عالمية ، ويتمتم لأخويه والزبد الأبيض يتجمع في زاويتي فمه :

"ألم أقل لكما ، كان من المفروض أن ندفنه وننتهي من موضوعه !" .

بعد منتصف الليل وعلى ضوء الفانوس سمع الأخوة من المذياع الصغير الذي ربطوا له بطاريات خارجية لفوها بورق وأوصلوها بأسلاك لعدم توفر البطاريات بالحجم المناسب للمذياع :

"إن وزارة الدفاع الأمريكية تدرس خياراً بالقيام بإنزال قوات خاصة فوق قرية المنيصير للقبض على أبي جابر وإخوته، لتقديمهم للعدالة الأمريكية".

أعمـــامه البـــخلاء

(1)

كل الحكايات التي تدور على ألسنة أعمامه هي في أحكام التدبير ، والتقليل من الإنفاق على قدر أن يبقوا أحياء ، أو هكذا يظن من يراهم وهم في حقيقة الأمر ليسوا أحياء بل هم للأموات أقرب شبهاً وأكثر شحوباً منهم ، وذلك الزبد الأبيض حول شفاههم هو الدليل ، والنظرات الفارغة في

عيون صغارهم وكبارهم ما هي إلا صور العالم مضببة بعماء الجوع ، الذي منع عنهم رؤية الأشياء كما هي بل يرونها كما يصورها لهم جوعهم ،

فالديك الذي يصيح فوق التنور ما هو إلا ديك مسلوق أنضجت النار قليه حدّ الاحمرار ، يتوسد صفحة رز متبل تتصاعد منه روائح مطيبات هندية ، وذلك الجدي الذي يركض وراء أمه ، والراعي الغليظ ، خلق الملابس الذي يراقبه ، ما هو إلا لفافة لحم "شاورما" يتصاعد منها دخان الشواء ، وتنقط دسماً فوق خبز أصفر وسعت استداراته الأيدي الماهرة ! لم يكونوا فقراء، فقد كان بمستطاعة أعمامه أن يلبوا كل رغباتهم ورغبات عائلاتهم، وأهل الحي الذي يسكنونه بما يملكون من مال كثير لكنهم رضعوا البخل رضاعة عن أجدادهم ، وعندما أستمع لما يتحدثون به ليلاً مفصلين فلسفتهم في البخل يعتقد إنَّه استمع إلى آراء فلاسفة كبار يحاضرون طوال السنة في جامعات متخصصة بدراسة هذا اللون من السلوك ، وأنَّ أعمامه تفوقوا على بروفسورات تلك الجامعات ، فقد استمعت في إحدى الليالي إلى أحدهم – كان صحفياً – وهو يحدثهم عن الفرق بين تسمية بخيل وسخي ، مقارناً بين التسميتين بعد أن شتم الناس أوسط إخوته ، الذي كان صاحب دكان بقالة وسط المدينة ونعتوه بالبخل والرداءة ، فقال لهم الصحفي وهم يتحلقون حول راديو قديم لا أدري من أي سوق مستعملات حصلوا عليه ، وقد أوصلوا إليه حزمة من البطاريات المستعملة الملفوفة بورق جرائد وحزموا المذياع بها ، حفاظاً على الكهرباء من التبذير ، والراديو يذيع أخبار إذاعة بريطانيا العربية

بصوت مدوٍ، فبشره الصحفي مبتسماً قائلاً إنهم حين نعتوه بالبخل فقد امتدحوه !!.

وفسر قوله ، بأن تسمية بخيل تعني إنَّه صاحب مال ومع المال شيء من الشدة والحزم في إنفاقه وتبذيره ! وهذا يعني أيضاً استمرار المال بين يديه وصفة الغني على صاحبه ، مادام إنَّه لا يخرج منه إلا النزر اليسير في كل مرة! أما لو أنَّهم نعتوه بالسخاء ، فإنَّ التسمية تعني إنَّه صاحب مال ، ولكن إلى جانب هذا المال هناك سهولة في تبذيره !! ثم خوّص عينيه ، وقلّص حاجبيه ، وأخذ يفسر لهم باهتمام :

"بالرغم من أنَّ صفة البخل تجمع بين الذم والمال ، والسخاء يجمع بين المدح والمال ، إلا أنَّ المال أثبت في يد البخيل بينما هو أقرب إلى الطيران من يد السخي ، لأجل مديح لا يغني ولا يدر ربحاً ، فالمديح كما تعرفون ليس إلا هواء !!

وهو كلام فارغ لا يقدم ولا يؤخر !! ".

وأخذ يعدد لهم أسماء أسخياء افتقروا ، وجاءوا إلى البخلاء يرجون الحصول على طعام يومهم !! فسأله أحدهم : إن كان يقصد بكلمة افتقر بمعنى صار مفلساً ؟! – فضحك الصحفي من جهل أخيه حتى تمدد على ظهره ، وقال له : "مفلس يا أخي في قواميس اللغة العربية تعني أنه صار صاحب فلوس كثيرة!! فهي على وزن مشعر ، التي نقولها حين نرى صاحب شعر كثيف !! ".

فضحك بقية إخوته من جهل عمه البقال ، ونظروا إلى أخيهم الصحفي نظرة إجلال وإكبار ، وفي هذه الساعة من الليل بالذات " التاسعة مساءً " ككل ليلة خميس تدق في المذياع دقات ساعة (بك بن) مضخمة ليعلن المذيع بعدها نشرة الأخبار ، فيسمعون صوت ذلك الهازل العابث ، الذي بلغ من عبثه وهزله أنَّه يقصد بيتهم قادماً من الناحية الأخرى من المدينة بواسطة الحافلة قبل الأخيرة ، ويكمن قريباً من دار الجد ليعير أولاده ببخلهم بصوت عال عبر الشارع الضيق ، فيهرع أعمامه إلى نوافذ البيت ينظرون إليه ويبادلونه سباباً بسباب، حتى جدهم يظهر له وبيده فانوس متعثراً بثوبه القديم ، حافي القدمين ، عاري الرأس، مشيبه، ويمشي من غرفته فوق السطح ليرد على الهازل ، العابث بأقبح الشتم ! والعابث يضحك من شتمهم ، فيزداد غيظهم وزيدون من شتمه ، والرجل يضحك ويضحك حتى يوشك على الوقوع إلى جنبه من شدة الضحك !! ويروي بعض جيرانهم أنَّهم يرون هذا العابث يعود إلى بيته بعد هذا الفصل الطويل من الضحك على أعمامه بواسطة الحافلة الأخيرة ! وهكذا كل ليلة خميس في التاسعة مساءً أو بعدها بقليل يحدث هذا أمام بيتهم ، ولاحتساب أعمامه فهم يكتفون بشتمه قائلين: " شتماً بشتم ! ولن يجعلنا نتهور لنفعل شيئاً آخر !! ".

(2)

جيرانهم يسمونهم اليهود ، وبيتهم يسمى عند الأدلاء والسماسرة بيت اليهودي !! والله تعالى يعلم ونحن نعلم إنَّهم مسلمون أباً عن جد ، منذ وصول الدعوة الإسلامية إلى بلادنا ، وقد جاءت التسمية عليهم كما يروون، إنَّه في يوم من الأيام عندما كان الحي الذي يسكنونه جديداً ، ولم يكن فيه من البيوت غير بيت الجد وبيت آخر في طرف الحي ، وفي أحد الأيام ولسبب ما ركض ذاك الجار الوحيد وراء ابنه وأمسك به قريباً من بيت الجد ، وأخذ يضربه ضرباً مبرحاً لا رحمة فيه ، فخرج له الجد بلحيته البيضاء وثوبه القصير ، ومعه أبناؤه السبعة ، وتحلقوا حول جارهم الذي يضرب ابنه بلا رحمة ، وهم بثيابهم الحائلة الألوان ، ولحاهم النامية ، ووجوههم الناحلة ، الصفراء ، ولكن لم يمد أحد منهم يده لحماية الولد الصغير ، الذي كان يتوسل بهم أن يحموه من ضرب أبيه ، واكتفوا بالتحديق إلى الجار وهو يضرب ابنه ، وكان الولد يزيد من توسله بالجد وأولاده ويرجوهم أن يمنعوا أباه من ضربه ، لكنهم لم يمدوا أيديهم واكتفوا بالنظر لما يجري أمامهم !!.

وبعد أن تعب الرجل من ضرب ابنه ، الذي أوشك على الهلاك !! رفع وجهه ونظر بوجه الجد وقال لهم :

"هل أنتم يهود ؟ ! أنتم بلا أدنى شك يهود !! "

وعندما لم يجبه أحد ، قال :

"لو لم تكونوا كذلك لما وقفتم دون أن تتدخلوا ، وأنتم تروني على وشك أن أقتل ابني وهو يتوسل بكم أن تحموه!!"

ومن ذاك اليوم لصقت تسمية اليهود بأعماه وأبيهم ، حتى أنَّ أطفال الحي يسمون أمهم التي لا تستطيع أن ترى بوضوح بإحدى عينيها بسبب الماء الأبيض بـ"اليهودية العمياء" !.

(3)

يتذكر دائماً ما قاله له عمه – الصحفي – وهو يعلمه ضرورة الاقتصاد ، فقد قال له يوماً : "إذا تأملت هيأتي وقلت لكل شيء مستعمل أرتديه عُدْ إلى صاحبك ! سأصير عارياً ! "أما ذلك المعطف الرمادي الذي يرتديه ،

فهو يرتديه ولا يدري أحد بالضبط منذ متى ؟! ربما منذ وعي وجوده الخاص عن بقية الناس ! وصارت عيناه تميزان بين ملابس كل واحد من البشر على حدة ! فهو في الصيف يزيل بطانته الصوفية ، وفي الشتاء يعيدها فيبدو في الصيف والشتاء مربياً ، وكان يفرح حين يصفه زملاؤه في الجريدة براسبوتين [2] أو مسخ كافكا [3] ويتذكر أنه خرج معه عندما كان عمره لا يتجاوز العاشرة ، وكان ممسكاً بيده في الشارع ويرشده كيف يسير بحذائيه دون أن يجعلهما يحتكان كثيراً بأسفلت الشارع لئلا يبليان

[2] راسبوتين : رجل الدين الروسي المعروف في العهد القيصري

[3] مسخ كافكا : الشخصية الرئيسية في رواية "المسخ" للكاتب الألماني فرانز كافكا

بسرعة ، فمرت بهما جنازة ، وكان خلف الجنازة حشد من المشيعين وامرأة تصرح بين النساء صارخة :

"بك يذهبون .. إلى بيت لا فراش فيه ولا غطاء !!.

لا كسرة خبز .. ولا كساء !!".

فقال لعمه ببراءة : "ياعمي سيأخذون الجنازة إلى بيت جدي !!"

فوقف العم عن المسير متعجباً ، وسأل : "كيف عرفت ؟! ".

فقال له : ألم تسمع ما قالته المرأة ، لقد عددتْ صفات بيت جدي !!

فضحك عمه حتى أوشك على الاختناق ، وعندما كبر الفتى أخذ يراقب ندبة سوداء على جبهته توحي أنَّ عمه من المصلين القانتين .. التقاة !.

وحقيقة تلك الندبة يعرفها ، فهي أثر ضربة نالها العم في شبابه بعقب حذاء نسائي مدبب نتيجة تحرشة بامرأة جميلة في حافلة مزدحمة ، وكانت السيدة معروفة بشراستها وعنفها عندما ترد على المتغزلين بجمالها ، فماذا يا ترى يكون ردها على الوقحين الذين تجاوزوا كلمات الغزل العابرة إلى الفعل الوقح ؟! ولشدة الضربة أخبره طبيب المستشفى الحكومي بعد ليلة من المراقبة السريرية إنَّها ضربة لا يُمحى أثرها من جبينه ، وأنَّه سيقابل الله تعالى بها يوم الحساب ، كما أنَّ شفتي العم قد اصطبغتا بسواد لا يُمحى ! ويقول حساده من الصحفيين عن ذلك السواد الغريب ، إنَّه لصق بشفتيه بسبب تقبيله الدائم لأحذية المسئولين، ورؤساء التحرير لأجل أن يحصل

على باب رزق ثابت من كتابة عمود أسبوعي حوله إلى ما يشبه الإعلان عن شيء ما يقبض عنه مقدماً من صاحب الإعلان ! ولشدة بخلة فإنَّه يعمد إلى الاستيلاء على الكتب التي يريد قراءتها من معارفه ، ولا يقرأها من بدايتها كما يفعل بقية خلق الله بل يبدأ قراءتها من النهاية ! وحين يسأله أحد لماذا يفعل ذلك؟! يجيبه أنَّه يفعل ذلك لتطويل مدة القراءة إلى الضعف فهو سيعيد القراءة مجدداً من البداية إلى النهاية ! وعندما أراد أن يتزوج فّضلَ أن تكون زوجته امرأة مطلقة صاحبة مال وعقار ،أكبر منه سناً لئلا يطلب منه أهل الزوجة العذراء مهراً مرتفعاً ، وحفلة عرس يضطر فيها إلى أن يصرف مالاً كثيراً من أجل الاحتفال وطعام عشاء للمهنئين ! وكان يقول عن أشجع الرجال في العالم :

"إنه ذلك الرجل الذي ينظر الناس تأكل طعامه فلا تعمى عيناه ، ولم تنشق مرارته أو يصاب بالشلل أو يموت بالسكتة القلبية!! ".

(4)

عمه الصحفي اللامع هو أول من أدخل للنقد الأدبي مصطلحات غريبة لم تستخدم من قبل وشاع استخدامها بعد أن تناولها في مقالاته النقدية ، ومنها على سبيل المثال مصطلح النقد النقدي ، وتوسع في استخدام المصطلح فصارت هناك قصة دينارية ، ورواية ألفية، وفيلم مليوني – عند

هبوط قيمة الدينار مقابل الدولار لأقل قيمة ، وعند ارتفاع ثمنه يعود إلى المصطلح السابق فيحذف كلمة مليوني ، ويضع بدلها تسمية النقد الألفي ، ثم ابتكر مصطلحات أخذ الآخرون يستخدمونها دون أن يعرفوا معناها ، مثل : التقعر الخيالي في النص ، والواقعية الإيهامية ، والواقعية الإشكالوية !.

إضافة إلى مشتقات عبارة "فقر الدم" مثل ، الفقر اللوني في النص ، التي يختصرها عادة حين تتكرر بكلمة جامعة – الفقلونصية – ! وغير ذلك من عشرات المصطلحات غير المفهومة ، ولا المعروفة في النقد الأدبي قبل ولوجه هذه الساحة .. ويتذكر أنَّ امرأته الأولى قبل أن يستولي على أموالها ، وعقاراتها ويطلقها كانت تعيره ببخله ، وأقسمت عليه بعد الطلاق قائلة في المحكمة الشرعية :

"والله ما يقيم الفأر في بيته إلا لحب الوطن وإلا فهو يسترزق طعامه من بيوت الجيران !!"

وقد كان في صغره كما يروي عنه أبوه ضاحكاً ، مسروراً من شدة حزمه ، ونباهته ، إنَّه كان حين تضع أمامه صحن الطعام يقوم بتقسيم الطعام إلى أقسام صغيرة يوزعها في الصحن ويجعل وقتاً طويلاً بين لقمة يتناولها وأخرى تتلوها ، وعندما يتناول اللقمة الجديدة يبسمل ويحمد الله ليبعد الشيطان لئلا يأخذ منها شيئاً أثناء نقلها إلى فمه!! وحين تسأله أمه لماذا يفعل ذلك ؟! يجيبها بتلقائية : "إنَّه يخاف إن أكل بسرعة لقيمات كبيرة

أن ينتهي الطعام دون أن يشبع ! وبسبب هذا البطء في تناوله الطعام ، كان يغفو في جلسته أمام الصحن والطعام لم ينفد بعد!!.

(5)

كان الأب في الأيام الخوالي يبعث ثلاثة من أولاده الأشداء ويطلب منهم أن يغسلوا أيديهم بالماء والصابون جيداً، وهي من المرات القليلة كل أسبوع التي يبذر فيها كل هذا المقدار من الصابون ! ويطلب منهم أن يذهبوا إلى مهمتهم ! فيذهب كل واحد منهم إلى جزار من جزاري السوق ، ويشرع كل واحد منهم على حدة بلطم أفخاذ اللحم المعلقة في محل الجزار بباطن كفه عدة مرات، وبعد ذلك يخرجون من دكاكين الجزارين دون أن يشتروا شيئاً من اللحم ، وفي البيت ينتظرهم أبوهم ، وقد أمسك بين يديه وعاء فيه ماء قليل فيغسلون أيديهم المضرجة بفتات اللحم في الماء وسط ضحكات الفوز ، والكسب المجاني ، ويوضع الغسيل بعد ذلك فوق مرق الخضار الذي تعده الجدة ، ويثردون ذلك اليوم خبزهم في مرق دسم فيه رائحة اللحم وطعمه!!.

(6)

وخلال سنوات القحط شعروا أنَّ الوضع المزري لأحوال الناس قد عدل وضعهم وصار الجميع سواء ، فلن يعيرهم أحد بسبب بخلهم ، حتى ذلك

الهازل ، العابث ، زائر الساعة التاسعة ليلاً توقف عن الطوف حول بيتهم يوم الخميس من كل أسبوع ليعيرهم ببخلهم ، فقد صار الناس سواء في البخل ، وسنوات الجوع هي الفترة التي استعادوا فيها إنسانيتهم ، ورباطهم الروحي بالجيران ، وهم الآن يعيشون فترة ازدهار فكري لا مثيل لها ، وقد وصف الصحفي فترة القحط بالفترة التاريخية التي ينضج فيها الإنسان ويصير اقعياً ، إن الوضع السابق هو الوضع الخطأ ! وأن المفردات الفكرية زمن القحط هي تعابيرهم التي أضاعوها لفترة طويلة ، فهم مثلاً يرددون ما قاله سيدنا المسيح ، وقد رأى رجلاً يأكل لحماً : "لحم يأكل لحماً !! ".

أو أقوال الأقدمين مثل : "ما أهلك الناس إلا الأحمران : اللحم والنبيذ !! " و "ما أهلك النساء إلا الأصفران : الذهب والزعفران ! ".

أو قولهم عن أمهر الأطباء : "إنَّ عامة أهل القبور إنَّما ماتوا بالتخمة وليس من قلة الطعام!" وقولهم : "إنَّ مدمن اللحم كمدمن الخمر!" ، كما أنَّ الأخوين إذا اجتمعا وطلب أحدهما من الآخر أن يأكلا معاً في صحن واحد اتهمه الآخر قائلاً معي رغيف خبز ومعك رغيف مثله ، ولولا أنَّك تريد أن تأكل أكثر من رغيفك لما قلت لي تعال لنأكل في صحن واحد !.

صار الجود عندهم قسوقاً !.

والسخاء صار من وسوسات الشياطين ! وفسر الصحفي في عموده اليومي أنَّ الرجفة ، والصاعقة التي أخذت أهل مدين ، وعاد الأولى في

قديم الزمان كانت بسبب سخاء كان فيهم ، وأنَّ الريح التي أهلكت عاداً كانت بسبب أنَّ طعامهم كان مبذولاً للباحثين عن عمل من الأمم الأخرى في بلادهم!! وأنَّ النقد أساس كل نقد أدبي، وأنَّ ثقافة البلاد استعادت توازنها وصارت الكتب تطبع بربع كمية الورق الذي كانت تطبعه في زمن التبذير، لتوفر الحكومة الورق الأبيض لطبع العملة الوطنية ، وهي الغاية الأسمى لصنع هذا الورق الأبيض الصقيل ، أما تبذيره في صناعة الكتب وطبع الصحف فذلك من الحمق وسوء التدبير!!.

أخيراً ، نعم أخيراً وجد الناس أنفسهم ، وتوازنوا مع واقعهم ، وشعروا أنَّهم في الوضع الاجتماعي الصحيح ، وبإمكانهم الآن فقط أن يضحكوا ملء أفواههم من بلايا وموبقات عهد الخير السابق ، وقد كانوا يعيرونهم بما ينبغي تكريمهم بسببه ، ومن لا يعرف أنَّ من الخير أن تقول (لا) برأس مرفوعة لمن يطلب الإحسان منك بدلاً من أن تقول (نعم) برأس مطأطأة ، ويدك مرتبكة تبحث عن المحفظة في الجيوب ، فلا خير يرجى منه !!.

أعمامي السبعة

(1)

أعمامي سبعة ، هي حقيقة كان يعرفها القاصي والداني سواي ، فقد كنت أظن أنهم أكثر من هذا العدد بكثير، في البداية اعتقدت أني الأخ الأصغر لهذه العصبة المشاكسة ثم بعد ذلك بأعوام عرفت أني ابن أخيهم الثامن ، الكبير ، الذي مات قبل ولادتي بأيام ، كانوا سبعة أعمام نشامى ، يسميهم الناس البعيدون بالأشرار وينعتهم الجيران القريبون بالسباع ، الكرام ، لا يمضي نهار الجمعة ،

من كل أسبوع دون مشكلة يفعلها أحدهم ، فقد اعتاد جدي على ذبح خروف وشيه ووضعه على أرز ساخن في طست كبير من النحاس ظهر كل جمعة وحين يندر مجيء الضيوف إلى دارنا يبعث أعمامي إلى باب الدار يتصيدون الضيوف ، فإذا جاء أحد ولم يأكل كما يجب من طعامنا لسبب ما وضع أعمامي رأسه في الرز الساخن وسلخوا له وجهه بذلك المداف الساخن فيخرج المسكين صارخاً يتعثر بخطواته باحثاً عن باب للخروج من هذا الجحيم ، لهذا السبب ولغيره امتنع الناس عن المجيء ناحية دارنا ظهر الجمعة على الإطلاق وأحدهم يوصي الآخر بعدم المرور في درب الأشرار أو التورط بدخول دارنا إلا إذا كان يحمل جوعاً في بدنه لأكثر من سنة كاملة ، ويستطيع أن يفرغ طست النحاس من حمولته

العظيمة من اللحم والرز الدسم ومقليات ومشويات جدتي الكثيرة التي تتفنن كثيراً بإعدادها.

(2)

عندما يصيب أعمامي اليأس من الانتظار في باب الدار يرجعون بوجوه حزينة ، مغتاظة ، فيعرف جدي من وجوههم أن لا ضيوف اليوم ، فيغادر مكانه حزيناً ، تاركاً الخروف المشوي وطست الرز المديوف بالسمن الحر [1] لأولاده السبعة ولي أنا ابن أخيهم المدلل ، فيقتطعون أجزاء كبيرة من الكبد المشوي ويحشونها في فمي حتى أكاد أن أختنق وأسمع كبيرهم ينادي في أذني بصوته الجهوري : أكبر يا فتى .. أكبر بسرعة .. كل أكبر كمية من اللحم يشتد عودك وتشارك أعمامك السبعة غزواتهم الليلة.

(3)

في الهزيع الأخير من الليل استيقظ على أصوات همهمات ونداءات خافتة وفي عيني النعاس أراهم على ضوء شعلة النفط المسودة يستعدون للذهاب لسرقة (المعدان) [2] ونهب جواميسهم وخرافهم وبقرهم ودجاجهم وذهب نسائهم وهم يدعون الله مخلصين أن يوفقهم في غزواتهم

) السمن الحر – السمن الحيواني ، الذي يستخدم في جنوب العراق بشكل واسع .[1](

) المعدان : سكان أهوار جنوب العراق وتعود أصولهم إلى السومريين القدماء .[2](

، ويعمي عيون المعادن ولا يرونهم ويكسر لهم سيقانهم فلا يتبعونهم ، ويخيب لهم رصاصاتهم الطائشة ويجعلها عليهم برداً وسلامة وأرى جدتي وسطهم بملابسها السود ولفافة رأسها البيضاء توقظ هذا وتجر الغطاء عن ذاك ، وتشجع هذا وتنغز ذاك بكوعها ، وعندما يخرجون من الدار تتوضأ وتصلي وتدعم لهم الله أن يعيدهم إليها سالمين غانمين وتكحل عينيها في الصباح برؤية نساء المعادن وهن يشققن أزياقهن ويصرخن على ما سرقه أعمامي منهم خلال الليل مالاً حلالاً اقتضته النواميس وقوانين العشائر.

(4)

عندما يجئ رجال الشرطة باحثين عن أعمامي السبعة يهربون من أبواب وفجوات خلفية ومن خلال السطوح القريبة ، ويختفي أصغرهم في تنور الجيران وأوسطهم في خم الدجاج أو تل التبن أو القش ، ويبحث رجال الشرطة في الدار الفارغة من غرفة إلى أخرى ومن مجاز إلى ممر ولا يجدون أحداً ، فيأخذون جدي ، بلحيته البيضاء وعقاله وقد سقط حول رقبته وكوفيته المرقطة على رأسه الأصلع ، وهو يلوم امرأته لأنها لا تطيعه بترك المدينة التي أنزلت من قدره والعودة إلى قريتهم التي لا يلمحون فيها شرطياً ولا رجلاً بزي حكومي طيلة العام، وبسبب أعمال أعمالي السبعة – في آخر مرة – ألقي القبض على جدي وضربه رجال الشرطة فلقة على قدميه اشترك فيها مفوض الشرطة السمين ونائبه وأطلقوه بعد ذلك بكفالة وهو يوشك على الهلال ، وصار لا يستطيع المشي على قدميه

المتورمتين ، وعندما رأت جدتي الجيران يحملونه في بطانية صوفية باتجاه بيتنا زغردت بأعلى ما تمتلك من صوت معتقدة أن السجن للرجال الأبطال وحدهم ، وأن جدي صار واحداً من هؤلاء.

(5)

حين لا يجد أعمامي السبعة من يتشاجرون معه ، عادة يحدث العراك بينهم ، وترعبك خناجرهم المعقوفة التي يخرجونها من أغمادها بلمح البصر ووجوههم القاسية ، التي لوحتها الشمس وشواربهم المرتجفة وغضبهم الشديد ، فترشقهم جدتي بسطل من الماء البارد ، معتقدة أن الشيطان بينهم والشيطان من نار ولا يطفئ النار غير الماء وتصح معتقدات جدتي وينشغل كل واحد منهم بملابسه المبللة وينسى الشجار، وأكثرهم يفرون من وجه جدتي فهي في نهاية الأمر ستقذف أقرب واحد منها بالسطل الفارغ .

(6)

الغريب في الأمر أن أعمامي السبعة يبدون وكأنهم في عمر واحد ، حتى أن بعض الغرباء لا يعتقدون على الإطلاق أنهم إخوة بل عصابة من الأشرار جمعت بينهم أعمال النهب و القرصنة ، وحين كانت جدتي تسمع ذلك الهذر تتعوذ من الحاسدين وتبسمل وتحوقل وتستعيذ من

النظرات النجسة وتحرق البخور وتقص من لحية جدي البيضاء خصلة وهو نائم وتحرقها في المبخرة حتى غدت لحية جدي التي كان يضرب بها المثل لوقارها وطولها، قصيرة ، منتوقة ، كلحية تيس مصاب بمرض جلدي ، وحين كان يسألها في الصباح وهو يتمرآى بالمرآة المشروخة عن تناقص لحيته المخزي ، تخبره هامسة أنها بخرت لأولاده منها لتعمي العيون النجسة ، فيثور جدي ويتهمها بالجنون والتخلف ويهددها أنها لو مدت يدها ثانية للحيته وهو نائم سيعرف كيف يربيها، وتسكت جدتي معترفة بذنبها ، مطيبة خاطره بأن الأولاد أولاده وعليها أن تحافظ عليهم وتحميهم ، فيهدأ غضبه ويهز كفه في الهواء استخفافاً من عقلها الخرف الذي لا يفهم شيئاً من المدينة ولا يتطور ، كانت جدتي في ذلك الوقت تحرص على حلاقة شعري بكامله بالموسى ، معتقدة أن الشعر الطويل من علامات التخنث والميوعة التي لا تليق بالرجال وحين أسألها عن أمي تضع رأسي الخالي من الشعر المدمي في مواضع كثيرة وقد أخطأت شفرة الموسى اجتثاث الشعر فجرحت الجلد في حضنها وتقول لي : أنا أمك .. ولا أم لك غيري ! فأصدقها وأنام على رجلها.

(7)

أعمامي السبعة جندوا في حروب البلاد الكثيرة ، أحدهم عاد إلى ضابطه وهو يمسك بأذن جنرال إيراني وهو يجره جراً ، فأعطوه سيارة جديدة ومهراً لعروس يختارها ، وآخر عاد إلى عريفه مع ثلاثة جنود أمريكيين ضلوا الطريق فجاء بهم أسرى ، فأعطوه نوط شجاع وعندما عرضه للبيع بعد الحرب لم يشتره أحد لأنه لم يكن من الذهب ، كان خليطاً من النحاس والحديد والصدأ ، والثالث فقد نصف وجهه بشظية مشرشرة من مدفع ثقيل وكان يسأل صاحبه في الموضع: "ماذا حدث للجانب الآخر من الدنيا فهو مظلم ولا يرى منه شيئاً ؟ والرابع عاد من الكويت حاملاً آلة ضوئية للطبع الملون ، يضع فيها الأوراق النقدية فتتوالد مثلها ، فتزغرد جدتي التي فقدت آخر أسنانها قبل فترة قصيرة وتجمع الأوراق المتوالدة لتشتري دجاجاً وبيضاً وبيوتاً وعمارات، أما الخامس الذي فقد ذراعه في الحرب فقد قرر أن يربي الدجاج ويجلس على حجر مرتفع في باب الدار مساء بانتظار أن يأتي ساعي البريد بذراعه المبتورة، كان أشطر أعمامي السبعة عمي السادس فقد جمع ثروة طائلة من جيبو الجنود المقتولين في المعارك ويروي للجميع أنه وسط وشيش القنابل وأسراب الطائرات المغيرة وشبكات الرصاص الوامضة جمع ثروته من جيوب المشطورين إلى نصفين وأولئك الذين فقدوا رؤوسهم، وعند نهاية الحرب أخفى دبابة صالحة عن عيون الدولة في الأحراش وغطاها بالقصب وعندما بدأت الحكومة تشتري السلاح من المواطنين دون مسائلة باع الدبابة للجيش بمبلغ كبير ، وأصبح في طرفة عين من أهل العقارات والأملاك.

(8)

الخائب الوحيد بين أعمامي السبعة عمي السابع ، لقد رضي من غنائم الحرب بمجندة أمريكية جميلة ألبسها ثوباً عربياً واخترق معها الخطوط المستسلمة ، واصطحبها إلى كوخ في طرف الهور ، كان يصيد لها السمك ويشقه بخنجره المعقوف ويشويه لها على نار العشب ويطعمها بيديه ويرسم على ظهرها العاري بفحم أسود طيوراً وحروفاً مسمارية قديمة ، وحين أصابتها الحمى عالجها بالأعشاب وبلل جبهتها بالماء وطلب من الله مخلصاً أن يشفيها وأخذ يبكي قريباً منها حتى شفيت ، وعندما انتهت الحرب ، لا يعرف كيف استطاعوا أن يعرفوا مكانها ويهتدوا إليهما في غابات القصب والعنكر (3) وهو الآن قد أطال لحيته ويلوح لأعمامي الستة برسالتها ، المكتوبة بلغة عربية ركيكة تبشره فيها ، أنها رزقت بغلام أسمر أطلقت عليه اسم "بوش" وتطالب بالنفقة على ابنه وأنها ستقيم عليه الدعوى أمام المحاكم الدولية والقانونية وتحسم حقوقها الشرعية من صندوق التعويضات الذي سيحيله بدوره إلى محاكم مجرمي الحرب.

استلم عمي تلك الرسالة بواسطة هيئة الصليب الأحمر التي أقامت مركزها فور إنهاء الحرب قريباً من دار جدي، وحين كنت أسأل عمي كيف استطاع أن يفعل كل ذلك مع الأمريكية بفترة قصيرة ؟ كان يقبض أصابعه بقوة وعصبية ويقول : ألا تعرف حقاً خصوبة أعمامك السباع ؟.

---

(3) العنكر : القصب الصغير النامي.

(9)

أعمامي السبعة الآن يستيقظون بعد منتصف الليل بقليل يشربون الشاي ويدخنون سجائر المارلبورو ويقتسمون بينهم ساعات الليل المتبقية ، خوفاً من سرقة السراق لأموالهم وحاجاتهم الثمينة التي جمعوها من هنا وهناك ، جدي ينام نوماً عميقاً بعد أن فقد لحيته تماماً ، ولم يعد في صحة جيدة تسمح له بلوم جدتي لسرقاتها الليلية للحيته وعمي الذي فقد نصف وجهه في الحرب يبحث في الكتالوجات التي بعثتها له شركة أمريكية عن أفضل نصف وجه ميكانيكي يعوضه عن ذلك المفقود في المعارك ، وعمي عاشق الأمريكية – وهو الاسم الذي أطلق عليه أخيراً – ينام مبتسماً كل ليلة حالماً بالسفر إلى أمريكا ، التي وصفتها له سجينته السابقة بالإشارات والرسم على الطين وهو لا يشارك إخوته واجبات الحراسة الليلية ، لا شيء يملك من حطام الدنيا سوى حلمه بالهجرة إلى أمريكا لتربية بوش (الصغير) تربية عربية صالحة.

(10)

أعمامي السبعة ليسوا أشراراً كما يعتقد الجميع .. أبداً ، إنهم – في حقيقة الأمر – يفهمون الحياة بطريقة غير التي يفهمها الناس جميعاً ، وتلك هي القضية برمتها.

أعمامي المقلّدُون

نحن، عائلة من المقلدين الكبار ، يعرفها القاصي والداني من الأقارب والجيران ، نقلد من يجذب انتباهنا وينحفر في ذاكرتنا ، نلبس ما يلبس ، نفعل ما يفعل ، ونهتم أن يرى إلينا الناس كما يرى إلى الأصليين الذين نقلدهم ، ونتعامل

مع الموضوع بكثير من الجدية والاهتمام ، ونعطي الأمر قداسة خاصة،

ومما يثير السخرية والضحك أن يصادف أن يقوم شخصان من أفراد عائلتنا بتقليد خصمين أو متنافسين دون أن تقع أي مشاكل وسوء تفاهم بين فردي العائلة ، وهذه الحرية الشخصية التي لا يتعرض عليها أحد نسميها : الديمقراطية ، ويسمي بعضنا البعض بالديمقراطي ، ولو استيقظ اليونانيون القدماء من قبورهم وأنصتوا لكيفية استخدامنا لكلمة الديمقراطية للطموا على رؤوسهم ونتفوا لحاهم شعرة شعرة ، لتطويرنا معنى الكلمة بهذا الشكل المفجع، السوقي !.

ونقول حين يتعامل أحد أعمامي مع موظف للدولة – غامزين لعمي – : تكتك معه ! .

– وتكتك ، أتينا بها من كلمة (تاكتيك) – بمعنى : أعطه رشوة ! ولو ذلك الذي وضع مصطلح – تاكتيك –عرف كيف نستخدم هذه الكلمة لمات من الضحك ! .

وعموماً نشأت في هذا الجو الديمقراطي الذي يتكتك مع المسئولين الحكوميين ويقلد من يراه مناسبا للتقليد ، كان عمي – أكبر أعمامي الستة – يقلد فريد الأطرش، المطرب المعروف ، بلفتاته وسكناته وتنهداته وصوته المحبط الحزين، وأسخف إخوته – عمي الأصغر – كان يقلد عبد الحليم حافظ بنحوله ، ودماثة خلقه ورقته، وطريقته في إجراء الحديث

بصوت منخفض خجول، بذات قصة الشعر الستينية ، وحتى ذلك الشحوب الخفيف الذي نلاحظة على وجهه من دون أن يعاني من مرض ما، ويبدو تماماً مثل المطرب المعروف، وكانت كل مراهقات المحلة والمحلات المجاورة ينادينه باسم : حلومي!! (وهي تسمية تحبب مشتقه من اسم عبد الحليم) بينما كان الرجال من المعجبين بعمي الآخر الممتلئ يسمونه: أبو وحيد ! لتقليده فريد الأطرش، وفي أعلى صالة الدار كانت صورة كبيرة بالأسود والأبيض لأحد أجدادي ، هو أب جدي الحالي، الذي لا يزال يأكل القوت، ويقلد مسعود العمارتلي [4] بطريقة وضعه للعقال على رأسه والصاية المخططة [5] التي يرتديها وحين يقف مستنداً على عصاه القصيرة مائلاً إلى اليسار كثيراً، كأنما سينهار قريباً ساقطاً إلى الجانب الآخر ، وصورة ذلك الجد بعمامته التي لها حجم إطار سيارة نصف حمل ! ولحية مشذبة حمراء ، مصبوغة على ما يبدو بأرقى أنواع الحناء حينذاك – وقد بدا في الصورة وكأنه زعيم ديني كبير ! ولكن الذي يناقض هذا التصور تواتر الروايات التي تحكي عن أميته وحمقه ، وتقليده الأعمى لما كان يرى في عصره من رجال ، لكنه في هذه اللحظة عندما بطلت أيدي أولئك عن إثبات مهاراتها وتهتكت في القبور ! وصمتت ألسنتهم إلى الأبد عن إبداء معارفهم وأكلها الدود ، صار ذلك الجد – من خلال صورته المهيبة – العمامة الممتلئة ، اللحية الطويلة ، المشذبة تشذيباً جميلاً ،

) مسعود العمارتلي : مطرب من جنوب العراق ، تقول الروايات أنه كان امرأة إلا أنه دأب على ارتداء ملابس الرجال ، والغناء بصوت رجولي ، مات هذا المطرب عام **1934** م .[4](

) صاية مخططة : نوع من أنواع الجبة تلبس في جنوب العراق في الريف والأهوار .[5](

بعينيه المشعتين وأنفه الطويل وارتفاع جبهته لحظة التقاط الصورة الشمسية ، الدال على كبرياء رجل عمل يتبوأ كل مرة مناصب خطيرة في الدولة ، وقد استعان بعض المؤلفين بصورة جدي للحديث عن أصحاب العلم الحقيقيين ! وصارت صورة جدي لأمي، هي الصورة المعروفة لأبرز العلماء الأجلاء والمتنورين بداية القرن التاسع عشر! وأتذكر جدتي تقول عنه ، إنه لم يكن يحل قدمي دجاجة مربوطتين، معتبرة أن جناحي الدجاجة يدان حولهما الخالق تعالى إلى جناحين غير مكتملين لئلا يقلد الدجاج الإنسان في مشيته وانتصابه وغروره !! .

وكثيراً ما رفع أعمامي على أكتاف الناس أمام المظاهرات لما لأشكالهم من تأثيرات حسنة على سير وتنظيم المظاهرة ، فذلك العم الذي ربى لحيته لتصير على شكل لحية كاسترو ووضع كاسكيتة عليها نجمة حمراء تشبه ما كان يضعه جيفارا على رأسه ، وكان ذلك الشكل المميز لعمي يلهب ضمائر الجماهير لتطالب ببلد سعيد وحياة حرة للكادحين ! ولكن حالما تحضر الشرطة ترمي الجماهير الهاربة عمي إلى الأرض ويختفي المناضلون تاركين ذلك الرمز ! الذي كان محمولاً على الأكتاف لضرب الشرطة ولسع عصيهم الحارق ، وأسئلة المحققين، الذين يرون في شكله ما ينبئ عن يساري متطرف خطير يعرف كل مكامن وأوكار القيادات اليسارية ! وعندما تكتشف بساطته وسذاجته يُطلق سراحه ويعود إلى البيت بأقدام متعثرة ووجه منتفخ لما تعرض له من ضرب وإهانة أثناء التحقيق ، أما ذلك الذي يقلد فريد الأطرش فلم يسلم من الضرب أيضاً من قبل أنصار عبد الحليم حافظ في أحد دور السينما التي تعرض فيلماً يمثل دوره

الرئيسي فريد الأطرش ، وطيلة مدة الفيلم ، كان أنصار عبد الحليم حافظ يزدرون فريد الأطرش ويسبونه ويستهزءون من كلمات أغانيه ، فطفح الكيل بعمي الذي كان يعتبر أنه وفريد الأطرش شخص واحد ! فانبرى لهم في ظلام القاعة قائلاً بحكمة بالغة : إنه يتعجب من سفهاتهم وضيق أفقهم ، كونهم يكرهون المطرب ويحضرون إلى أفلامه ! ولم يكمن جملته تلك حتى ضج أولئك الأنصار بالغضب وتنادوا لضربه !! فَضُرِبَ في الظلام ضرباً مبرحاً ، واضطرت إدارة السينما مع ارتفاع الضجيج أن تضيء الأنوار ، وحالما أبصر الجمع المشاغب ، الشبه بين عمي والمطرب، فعرفوا أنَّ الحظ وحده جعلهم يقعون على مقلد خطير ومحب لا يشق له غبار للمطرب الذي ينافس بلا هوادة مطربهم المحبوب ! فاشتد الضرب على عمي المسكين ، وخمشوا ملابسه حتى مزقوها مُزقاً ، وعاد إلينا شبه عارٍ يشكو من الآلام في كل جسده ، وحين رآه عمي الأصغر الذي يقلد المطرب المنافس ضحك عميقاً ، وعلق على ذلك الضرب الشديد الذي تعرض له أخوه ، قائلاً بصوته المنخفض "لتعرف يا عزيزي مدى تعلق الجمهور بي ! ومحبته لي ! وأرجو يا أخي وأقولها لك بمحبة شديدة ، أن تتوقف عن التشبت بتقليد رجل لا يعرف غير الحزن صاحباً ونجياً ، ولا يأتي من ورائه غير الضرب المبرح لمحبيه ومشجعيه !".

فرد عليه أخوه بفم مدمي وجهادية عالية ، وتعب شديد :

"ومن ظن ممن يلاقي الحروب

بأن لا يصاب فقد ظن عجزاً .

عمي الرابع كان يقلد داعية إسلامي ، لا يعرف أحد كيف التقط أخباره ، وشكله ونوع ملابسه ، وبدا واضحاً للعائلة مما كان يرتديه عمي ، ويحرص على توصية الخياطين بتحضيره له ، إن ذلك الداعية من الباكستان أو من جنوب شبه القارة الهندية ، إذ كان يصرف أجرته على كل ما يصادفه من أشياء هندية ، حتى أنه صار يضع البهارات ، أنواع التوابل فوق أصابع الموز بعد تقشيرها ويزداد اللب المفلفل ، الحارق ، مرة واحدة ، وعندما يرى أحدنا يأكل طعاماً دون أن يضع عليه فلفلاً حارقاً ينعته بالجنون !! لأنه يأكل شيئاً بلا طعم ومعنى ! وصاحب هذا العم المتطرف شاباً نصرانياً كثير الفكاهة ، محباً لشرب الخمرة ، فدعاه عمي إلى الإسلام فضحك صديقه النصراني وقال له أنه يحب شرب الخمرة ولا يصبر على مفارقتها ، فكيف يصير مسلماً ؟! فقال له عمي وهو يمسك لحيته الطويلة التي صبر عليها حتى جعل شكلها بهيئة فتائل ملفوفه ، وقال له : صر مسلماً واشربها ! وبقي يلح عليه في هذا الأمر ، وما أن صار صاحبه مسلماً ، حتى قال له عمي ، وعيناه تلمعان بالنصر: "بما أنَّك قد أسلمت الآن وفتح الله قلبك للإيمان فإن شربت بعد يومك هذا الخمر حددناك ، وإن رجعت عن الإسلام قتلناك!!".

وأكثر أعمامي خطورة في تقليد الآخرين عمي الخامس ، ذلك الذي كان يحضر أنفه في الأمور السياسية التي لا ناقة له فيها ولا جمل وقد دأب هذا العم الكريم على تقليد السياسيين وأصحاب المناصب الكبيرة في الدولة والمجتمع ، وقد مرت البلاد في تلك الفترة بعدد كبير من الانقلابات وكان حالما يسمع من المذياع أن ثمة انقلاباً قد حدث في العاصمة حتى يشرع

بكتابة برقيات التأييد ، مهللاً للعهد الجديد ، ولا يكتفي بذكر اسمه الثنائي في نهاية البرقية بل يضع الثلاثي مع عنوان مفصل، ويبقى طيلة الأيام الأولى من الانقلاب منكباً على تحرير البرقيات والرسائل ، وإرسالها بيد أخيه الأصغر إلى دائرة البريد الصغيرة المجاورة لمكتب أمن المنطقة.

وكان ضابط الأمن يرى ويسمع كل ما يفعله عمي فاغتاظ كثيراً من جرأته التي صارت حماقة ما بعدها حماقة، وهو يعرف أن عمي لا علاقة له بما يحدث من قريب أو بعيد ، فلا هو من رجال الجيش ، ولا من أهل السياسة، فما الذي يدفعه لفعل هذا الأمر غير المشاغبة وسوء الخلق والجرأة الفائقة ؟! ولم تمض إلا أيام قليلة حتى حدث انقلاب مضاد أزاح الحكومة السابقة، ولم يعلم عمي بما حدث ، لكنه فز مرعوباً من نومه ورجال الأمن عند رأسه ويرفسونه بأحذيتهم الثقيلة ، وجدتي تشق زيقها باكية، قائلة إنَّ ابنها لم يفعل شيئاً سيئاً ، وضابط الأمن الحانق يسخر من عمي وجدتي قائلاً لهما :

"أعرف أنه لم يفعل شيئاً سيئاً غير أنه أتعب قلوبنا بالبرقيات النارية التي بعثها للحكومة السابقة !! فليشرب الآمن مرة واحدة من ذلك الحساء الساخن الذي أحرق تحت قدره كل وقود الوطن وورقه!!" وابتداء من ذلك اليوم الأسود صار عمي يُسجن ويُطلق سراحه بتعاقب الحكومات، واختلافها ، سواء كتب برقيات التأييد أو لم يكتبها ! وهو ذاته لا يعرف سبباً واحداً لما يفعله معه رجال الأمن، لا يعرف طبعاً أن اسمه صار بواسطة ضابط الشرطة الحانق ذاك ضمن ملف المشاغبين، والذي يحرص

أي عهد جديد على تنظيف البلد منهم، وخصوصاً بداية تسنمه للحكم، وللأشهر الأولى في الأقل خوفاً من السلب والنهب، ومظاهرات الشغب المعاكسة !!.

عمي السادس كان يقلد أشهر المزورين في التاريخ ، فهو يحدثك عن بونزي الأمريكي [3] الذي لا تفرق الشيكات التي يزوّرها عن الحقيقة ! وزبرو الإيطالي [4] المختص بتقليد أوراق إطلاق السجناء من سجنهم ! والفرنسي دودفينيه [5] المختص بكتابة وصايا الأغنياء المزيفة من زوارق الجسر على دجلة في يوم شديد الريح، وهو يمسك أطراق ثوبه بين ساقية لئلا تطير ويحاول أن يكتب على ورقة وضعها على ركبتيه ، فقلت له :

"هل جننت يا عمي ! في هذا الوقت ، وهذا الموضع تكتب ؟!"

فقال عمي ضاحكا : "أهلا بابن أخي !".

ثم همس لي بعد أن تلفت يميناً وشمالاً :

" أريد أن أقلد خط رجل مرتعش اليد ، ويدي السليمة لا تساعدني على فعل ذلك ، فتعمدت الجلوس ههنا لتحرك الزوارق بالموج في هذه الريح الشديدة فيجئ خطي مرتعشاً كما ترى ، على أمل أن يشبه خطه!! .

مهمتنا شاقة كما ترى يا ابن أخي العزيز !!

فديتك منها بروحي ! ".

أما أخوهم السابع ، فهو أبي الذي مات مبكرا – بعد ولادتي مباشرة – وقد تركني لأتربى بين أعمامي الستة كواحد منهم معتقدا في البداية إني اخ لهم ، ولست أبن أخيهم المتوفي ! وكنت أشاطرهم طيشهم وعراكهم ومفارقاتهم ، لكنني لم أجرب طرقهم في تقليد الآخرين ، كنت فقط مغرماً بتسجيل ما يفعلوون وأضيف على ذلك في بعض المرات مما أقرأ أو من بنات أفكاري ، وهنا لا أستطيع أ، أقول شيئا عن أبي يرحمه الله لما للأبوة من حرمة وقداسة ، مكتفياً بقولي عنه إني لأعلم أن له شرفا وبيتا وقدما !! وإذا أفحمني قائل بقوله :

"إنك بالغت بحق أبيك كثيراً ! ".

سأقول له ، إني ببساطة أعني بالشرف الأذنين المشنقتين ، والبيت ، أعني به أن له بيتا يأوي إليه كباقي خلق الله، أما القدم فقد عنيت أن له قدما يطأ بها ، وهذا ما قصدته بالضبط ! ومن فهم إني قصدت غير هذا فهذا شأنه ، والسلام ! .

أعمـــــامي اللـــــصوص

(1)

اعتادت جدتي أن تدعو الله مخلصة أن يحفظ أعمامي أثناء خروجهم ليلا لسرقة حلال المعدّان [6]: ذهب وفضة نسائهم ، أبقارهم وجواميسهم ، وإذا لم يتوفر كل ذلك بسبب فقر صاحب الدار يعمدون إلى سرقة : خرافة ومعيزة، وإذا لم يتوفر لهم ذلك سرقوا أي شيء من داره ؛ القدور، صحاف الأكل ، أسمال العائلة ! لئلا يقال أنَّهم غزاوا، وبسبب خوفهم من أن المعدان من المشركين الكفار، وسرقة حلالهم واجبة بواجبها الدين وتبيحها شرائع الملة ! وهي مفاهيم خاطئة لا نعرف من مَن توارثها أهلنا ؟! وكان منظرها مضحكا ،

وكلامها متناقضا ، هي تدعو الله تعالى رافعة يديها إلى السماء بخشوع عميق طيلة وقت خروج أعمامي في الهزيع الأخير من الليل لسرقة بيوت

) المعدان : سكان منطقة الأهوار في جنوب العراق و تعود أصولهم إلى السومريين سكان البلاد الأصليين و هم يعيشون في صيد الأسماك وتربية الحيوانات ومنها الجاموس[6](

الناس ! طالبة من الله أن تتيه رصاصات المعدّان ، المتتبعة أولادها وتخطئ أهدافها ، وتنطفئ في التراب ولا تصيبهم شغاف قلبها وزهرة عمره – وعند عودتهم فجرا ، سالمين ، غانمين ! تطلب منهم إن صادف خروجهم ليلة الخميس على الجمعة ، أن يستحموا في الصباح الباكر ، ويرتدوا أفخر ملابسهم ، ليتقدموا الصفوف في صلاة الجمعة ، وقد ختموا أسبوعهم بما يرفع الرأس : سرقة بيوت المعدّان ، وحلاقة شواربهم ، وفضح جبنهم أمام نسائهم !! وعند المساء يحكي كل واحد منهم قصة عما فعله في قرية المعدان في الليلة السابقة من أفعال بطولية ! وجدي يردد على مسمعي و أنا أكتب كل ذلك : " ومع كل هذه البطلات التي تسمعها من أفواههم ، فإنَّ أعمامك لصوص إلى حد ما !! " .

ويقهقه ضاحكا ، وتعلو ضحكات الأهل وسط دخان المواقد والمطال [7] يشتعل فيها بنار زرقاء ، ورائحة قهوة مركزة تنثال ، وزفير بخار كتلي الشاي وهو يرفع الغطاء بصوت مسموع ، وارتعاشات شعلة فانوس النفط في مضيف جدي الواسع تعيد تكبير ظلال الأشخاص وبعد ذلك تصغرها على جدار القصب عدة مرات ، وتقص جدتي التي توسطت جلسة العائلة ، قصة يكركر الجمي بسببها ضاحكين .

(2)

) المطّال : دمن الحيوانات المجفف يستخدم في الريف و مناطق الأهوار كوقود للطهي و التدفئة .[7](

تقول جدتي في قصتها : " أنَّ أحد أجدادنا في ليلة من ليالي الشتاء مضى ليسرق فرس أحد المعادن ، وقد اشتهرت بعدوها السريع وأصالة نسبها، فدخل بيت المعيدي في غفلة من عبيده ، وساكنيه عند الغروب، واختفى بين الأغطية والوسائد ، وكان ينصت لزوجة المعيدي وهي تعد طعام العشاء وزوجها يستعجلها بسبب جوعه الشديد ، وأخذ الجد المختفي بين الوسائد والأفرشة يشم رائحة الطعام الزكي ، فأخذ شعوره بالجوع يزيد كل لحظة ، وقرر في نفسه أن يأكل مع المعيدي وزوجته عندما يحضر الطعام مهما كلفه ذلك الأمر من المخاطر !! وأخذ ينتظر الفرصة المواتية ، وقد جاءت سريعا من غير أن يتوقع ، فحالما أكملت زوجة المعيدي طهو الطعام اطفأت موقد النار فعمّ الظلام في الغرفة ، ووضعت الطعام في قصعة ليبرد أمام زوجها ، يقول الجد في القصة :

إنَّه أنسل من مخبأه بهدوء ، وجلس ووسطهما ليشاطرهما قصعة الطعام!!.

فشعر المعيدي بأنفاس غريبة تتردد بينه وبين زوجته ، فحبس شكوكه ، وحالما امتدت يد جدي لتناول الطعام أمسك با المعيدي ! وسأل : مَنْ أنت ؟!! يقول الجد أنَّه عمد إلى حيلة بارعة للخلاص من هذا المأزق ، فأمسك بيده الأخرى يد زوجة المعيدي !! فصاحت على زوجها ماذا بك ؟! دعني أكل ، لماذا أمسكت يدي؟! فترك المعيدي يد جدي !! وقد ظن أنَّه قابض على يد امرأته ، وجدي – بدوره – ترك يد زوجته المعيدي ، وهكذا أنطلت الحيلة على المعيدي وزوجته !! وعلا الضحك في المضيف لبضعة ثوان ثم أكمت الجدة بصوتها الجمهوري: "وبقى الجد يأكل معها

وحين نفد الطعام بسرعة ، قال المعيدي لزوجته : لم نشبع ! أجل لم نشبع ، هل قللت من طعامنا يا امرأة ؟!!.

وهنا تعالى ضحك أعمامي من جديد ، فانتظرت الجدة حتى هدأ الضحك وأكملت : "فأجابت :عملت طعاما يشبع أثنين !! فتعوذ المعيدي من الشيطان الرجيم بصوت مسموع ، ثم قال : لقد أكل معنا الشيطان !! (فحبس الجد وهو بين الوسائد ضحكة مدوية كاد يطلقها لما قاله عنه المعيدي تكشف مكانه ، فيضيع منه فرس المعيدي! فتعوذ من الشيطان في قلبه وحبس ضحكته بصعوبة شديدة !!) وما إن نام المعيدي وبدأ يشخر بصوت عالٍ حتى تركت زوجته فراش نومهما إلى أحد عبيد زوجها (يقول الجد إنه شعر بفراسة اللص التي يراهن عليها دائماً أنَّ ذلك الوقت كان هو الوقت الملائم لسرقة الفرس !! فترك مخبأه وتوجه إلى مربط الفرس في الفناء وحل حبله وامتطاه وفرَّ به ! فشعر المعيدي بسرقة الفرس من حمحمته ، وصهيله ، فتبعه مفزوعاً ، حافياً ، ويبده سيقه فتعثر بالعبد وزوجته بذاك الوضع المخزي !! فقتل العبد بالسيف بضربة واحدة شجت رأسه ، وهربت منه امرأته عارية ، فرمى عليها يمين الطلاق ، وتبع المعيدي جدي راكضاً مع عدد من أفراد عشيرته ، الذين فزّوا من نومهم مرعوبين، وعندما أنتاب المعيدي اليأس من اللحاق بسارقه صرخ عليه في جوف الليل : "لا بارك الله فيك !! لم يفعل بنا لص ما فعلته !! فضحتني في عشيرتي وقتلت عبدي ، وطلقت زوجتي ، وسرقت فرسي وأكلت عشائي !!" وتعالت ضحكات أعمامي في جوف الليل مما فعله جدنا من قديم الزمان بذلك المعيدي المسكين !!.

(3)

ثم يقص عمي الأوسط عن شبكة جواسيسهم ، التي توصف بأنَّها من أعقد الشبكات وأكثرها مهارة في التخفي، ودقة في المعلومات التي تأتي بها عن تحركات المعدان واستقراء نواياهم قبل أن تتحوّل إلى أفعال إلى حدّ أنَّهم في أحد الأيام عرفوا أنَّ أحد المعدان ترك قريته ليبيع عدداً من جواميسه ، فتبعه ثلاثة من أعمامي ومعهم حبل ليف وضعوه في كيس ، وتبعوا المعيدي إلى السوق وانتظروه حتى باع جواميسه بألف دينار ، ووضع ماله في كيس من القماس ، وبعد أن أكل وجبة ثقيلة من الكباب الدسم في المطعم على عادة المعدان ، وأهل الريف عامة بعد أن ينجزوا صفقة رابحة في المدينة وصلى صلاة الظهر في الجامع ، وبقي في الجامع ينتظر أن تميل الشمس قليلاً، وتخفت حدة ما ترسله من شواظ حارقة ، وبفعل حرارة الجو والجهد الذي بذله منذ الصباح الباكر ، وأكلة الكباب الدسمة التي أكلها بدأ يغمض عينيه ويفتحهما بصعوبة ثم قرر أن يغفو قليلاً! وضع كيس المال تحت رأسه !! حاول المعيدي اللحاق بعمي ، الذي أخذ الكيس وركض إلى خارج الجامع إلا أنَّ المعيدي وجد حبلاً يزيد طوله على خمسة أمتار وقد ربط بإحدى قدميه ونهايته ربطت بحافظة أحذية المصلّين التي بدورها تم تثبيتها إلى الجدار !! وحاول المسكين حل العقد الكثيرة حول قدمه ، وعندما انتابه اليأس من فكها ركض باتجاه الطرف الآخر للحبل المربوط بحافظة الأحذية ، فوجد أنَّ فك عقدته

أيسر من فك العقد الكثيرة عند قدمه !! لذلك شرّع بفك الحبل عند الحافظة (وهنا يضحك عمي عميقاً ، ويقول هازاً رأسه كأنما يكشف سراً خطيراً : حيلة بارعة اقترحها أخونا الأصغر ونفذناها على المعيدي على أمل أن يبقى الحبل الذي يزيد طوله على خمسة أمتار مشدوداً عند قدمه ، ويستطيع حل عقدة الطرف الآخر بيسر ! ولأنه سيكون مستعجلاً للحاق بالذي سرق ماله، فإنه سيضطر إلى حمل الحبل بين يديه ؛ وعند باب الجامع سيصيح عمي الثاني ، الذي بقى ينتظر خروج ذلك المعيدي مستصرخا أهل السوق بأنَّ المعيدي لص فرّ ! من سجنه!! وما أن ينظر الناس هيئته والحبل المربوط عند قدمه وبقيته بين يديه حتى يصدقوا نداء عمي !) وذلك ما حصل فعلاً ، فقد صدق الناس نداء عمي وأخذوا يضربون المعيدي ضرباً مُبرحاً لن ينساه طوال حياته ! وترك عمي المشهد عند ذلك الحد ليلحق بأخويه ، واقتاد الناس المعيدي إلى أقرب مركز شرطة والرجل يكاد أن يفقد وعيه لهول ما عاناه ، ووجدت الشرطة أن تسلمه إلى محكمة عسكرية لأنَّهم وجدا أنَّه تخلف عن أداء الخدمة العسكرية ! وبعد توقيف طويل في مقر الانضباط العسكري حكمت عليه المحكمة العسكرية بالسجن ثلاث سنوات ، وفي السجن المركزي زاره أقاربه ، فرفع الرجل يديه إلى السماء وانتحب باكياً ، وقال اللازمة ذاتها التي يقولها راوي القصة من أعمامي في الختام دائماً :

"نعم يا إخوان لم يفعل بي لص ما فعله ذلك الملعون !!

سرق مالي أمام عيني ! ورماني في السجن لثلاث سنوات !

لن أنسى وجهه ما حبيت ، لا بارك الله فيه إلى يوم الدين !!".

(4)

وبعد هذه القصة أزداد ضحك أعمامي ولغطهم . وتعالى سعال المسنين المكتوم بسبب أدخنة لفافات التبغ وحرق المطال ، انشغلتُ – انا ابن أخيهم – بكتابة أخبارهم ونوادرهم على ضوء فانوس في غرفة قصب ملحقة بالمضيف على أمل أن أنشرها عندما أكبر بكتاب يُضحك الملل والنحل مما فعلوا ويطهرهم أيضاً من ذنوبهم ، فقد ثقلت موازينهم بالجرائم ، وصاروا وحوشا بشرية !! نعم وحوش ضاحكة من آلام الناس ومصائبهم ، وأتذكر أنني سألت عمي عن ذلك المعيدي ، الذي سرقوا ماله وتسببوا بسجنه ، فقال لي : نسمح لك بسؤال واحد فقط !! فقلت : نعم ، موافق على شرطك ، قال : ما هو سؤالك ؟! قلت : أخبروني كيف تم لكم ربط قدم ذلك المعيدي النائم بالحبل وسط المسجد دون أن يعترضكم معترض ؟! فقال عمي : أقمنا حوله ستراً عن الناس!! فسألت : ومن أين أتيتم بالستر ، وهو لم يظهر في القصة ؟!

فضحك عمي ، وقال هازئاً من جهلي : "لقد اتفقنا على سؤال واحد فقط !! وهذا سؤال ثان ! علينا أن نتفق حوله ! وتعالى الضحك في المضيف من سذاجتي وطيبتي الزائدة ، فأخذت أوراقي وانصرفت وفي نيتي أن أختتم قصتي بلازمة تخصني أيضاً استقيتها من قول جدي يرحمه الله في آخر أيامه في هذه الغانية : "أن أعمام لصوص إلى حد ما !!" وحتى هذه اللحظة لم أفهم ما قصد جدي بعبارة "إلى حد ما" ، فاللص كما أعرف

هو اللص، ولا أعتقد أن هناك لصاً إلى حد ما !! كأنني به يقول : هذا ميت إلى حد ما !! أو هاته حبلي إلى حد ما !! رحم الله جدي لقد كان واهما ، وغفر الله لأعمامي لقد كانوا لصوصا تركوا بصمات واضحة في حياة ضحاياهم!.

الجزء الثاني

الكلبة التي صارت نمراً

(**1**)

في السنة الخامسة من سنوات الحصار ، كان الناس لشدة معاناتهم في مدن البلاد الجنوبية يعتقدون أنَّه قدر لابد منه ولا ينقضى يوم حتى يوم القيامة ، وفي تلك الليلة التي لم ينقطع فيها التيار الكهربائي عن المدينة ، قرأ مذيع التليفزيون أسم فيلم السهرة ، وبدلاً من أنّ يقول "آه .. يا حبيبي .. آه" قرأ اسم الفيلم هكذا : واحد وخمسون.. يا حبيبي ..

واحد وخمسون ! وقد بدا المذيع اثناء ذلك شديد الذهون من غرابة اسم الفيلم ، ولم يفطن أحد في مدينة "قلعة صالح" [1] لهذه الغلطة الشنيعة غير صاحبة جاسم الخسران ، الذي عاد موفداً إلى مدينته الجنوبية ليستقبل فريق التصوير التليفزيوني القادم من العاصمة ويكون دليل البعثة الأجنبية الإعلامية ، وأنْ يتم تصوير فيلم عن الحصار ، هدفه الرئيسي : إظهار تأثيرات الحصار على المدن العراقية كركر ضاحكاً لغلطة صاحبه – المذيع – التي لا تنسى وستبقى تتردد على ألسنة العاملين في المؤسسة لسنوات كثيرة كعار أبدي لا يمحوه الزمن ، وتلك الضحكات العميقة أذهب النعاس من عينيه ، فأخذ يحدث بشاشة التليفزيون الصغيرة، وهي تنقل لقطة بانورامية بالأسود والأبيض لمسرح، وعلى خشبته فرقة رقص مع مؤثرات موسيقية صادحة واكتفى المخرج بلقطة متوسطة لأسماء الممثلين وبسبب مساحة الشاشة الصغيرة وحركة هوام الليل ، والتصاق بعضه على الشاشة محدثاً صوتاً مميزاً، لم يستطع أن يقرأ اسماء الممثلين ،

) قلعة صالح : مدينة عراقية تقع بين محافظتين جنوبيتين هما العمارة من الشمال و البصرة في الجنوب[1](

وتمنى أن تكون راقصة الفرقة الفولكلورية هي بطلة الفيلم ، ليمد إليها يديه بشوق الوالهين ، ككل مرة يراها في فيلم أو مسلسل ، فتقز إليه عبر الشاشة بقدرة الإرادة والخيال ، ويحدثها هامساً عما فعل به الزمان ، ويرقص معها بعد ذلك على موسيقى أغنية "أنت عمري" محاذراً أنْ يوقظ أمه النائمة على حصيرة القصب تحت نخلة البرحي ، وقد عقد مرض السكر لسانها ، وأثقل جفونها ضغط ادلم العالي فنامت منذ الساعة الثامنة مساءً ، وستبقى تغط بنومها الثقيل إلى أنْ يوقظها عند انتهاء فيلم السهرة لتقف متمايلة إلى اليسار واليمين واضحة يدها على جبهتها حاجبة ضوء المصباح عن عينيها ، كأنما تكمل آخر ما أطلقه كوكب الشرق من أصوات عبر جهاز التسجيل ، متسلطنة على جمهور غير موجود ، واضعة غطاءها تحت إبطها ، باحثة في ظلام الحوش عن الطريق إلى غرفة نومهم ، فكر : أنَّ أكبر مشكلة ستواجهه مع فريق التصوير هي كيف يحصلون على نمر لتأدية اللقطة المهمة في سيناريو الفيلم القصير ، هرش شعر رأسه وأجل التفكير بالمتاعب القادمة مستمتعاً برؤية وجه الممثلة وهي تغمض إحدى عينيها غامزة له ، جالسة عند طرف السرير مومئة له بوجه طفولي ضاحك أنْ يقترب منها ، تقترب ، ويقترب حتى صارا ظلاً متداخلاً وحلماً طافحاً باللذة والارتعاش ، لا تمسكه الأيدي ولا تميزهما العيون.

(2)

اختفت الكلاب والقطط من الطرق الترابية ومن أمام الأبواب الصفيحية ، فمن أين يأتي لهم بالنمر لتنفيذ الفيلم؟! لم تبق في المدينة سوى كلية وحيدة ، عجفاء ، وبين لطخات الوحل وجروح الجلد ، ربما سيجد الباحث عما ينبئ عن لونها الوردي – سابقاً – لون الشعر المحتوت مع أجزاء من الجلد ، وقد التصق جلدها بالعظام ، واتسعت عيناها على شكل فجوتين غائرتين ، كما لو كانت هي من تلك الكلاب المرسومة على الرقُمِ الطينية التي تجئ إليهم دائماً كرسائل من أجدادهم الميتين قبل آلاف السنوات ، ويجدونها مطمورة تحت التراب وهم يحفرون في الأرض أساسيات لبيت جديد ، وراح يتأمل تلك الكلبة ويفكر : إذا تعسر الحصول على نمر حقيقي لفيلمهم ، هل يمكنهم الاستعاضة عنه بكلب شرس ؟ !!.

(3)

بدت قروح دائية ظاهرة على رقبتها مملوءة بالدم والصديد ، كانت قبل ذلك اليوم تقترب من عابري السبيل واضعة ذيلها بين قائمتيها الخلفيتين ، مقتربة منهم اقتراباً شديداً ، ودون أنْ تنبح مكتفية بالتكشير عن أنيابها ، كأنها على وشك افتراسهم ، لكنها لسبب غير معروف تعود مسالمة مرة أخرى ، عابرة الطريق إلى الجانب الآخر، ولشدة نحولها وضعفها بدت وكأنها عظام متصلة بمفاصل مزيتة جيداً ، مما يتيح لها الحركة في كل الاتجاهات ، ويغطي ذلك الهيكل جلد مثقوب من عدة أماكن ، كانت

ضمن مجموعة التصوير ويعاملونها على أنَّها نمر وطني أذاه الجوع والتشرد وقوانين الحصار الظالمة ، رأتهم بعينيها نصف المغمضتين ينقلون الكاميرات وأمتعة المجموعة إلى خارج السيارة ببنطلوناتهم الجنز القصيرة وسيقانهم البيض ، لا صفة بفائض الضوء ، عضلاتهم متوترة ، منقبضة ، متراخية اثناء الحركة ، التفكير لا يزال مستمراً .. هذه المرة كان جماعياً : كيف يمكن تدريبها لتمثل دور النمر ؟! وجعلها تبدو على درجة كافية من النبل المطلوب ، لتكون على قدر مقبول من الإقناع للجمهور الذي سيعرض عليه الفيلم !.

(4)

في تلك الأيام الصعبة أغلق الجزارون محلاتهم ، فلم يعد بإمكان أهل "قلعة صالح" شراء اللحم؛ إذ بدأت المسألة تدريجية ، فقد تحوّل الذين يشترون اللحم عادة إلى شراء مواد غذائية بديلة ، والأكثر قدرة على الدفع عمدوا إلى تخفيض كميات اللحم التي يشترونها ويزيدون من كمية العظام والشحوم ، وعندما أخذ ارتفاع سعر اللحم بشكل يومي متناغماً مع ارتفاع سعر صرف الدولار الأمريكي وأخذت العملة العراقية تتهشم ، اكتفى المقتدرون بشراء العظام ، وبذلك فقد زاحموا الكلاب على أرزاقها ! وحين ارتفع ثمنها مع مرور الأيام توقف البيع و الشراء ، وبقى الجزارون يفردون حبات مسابحهم ضجرين قبل أنْ يتحوّلوا إلى مهن أخرى ، وحاول بعضهم أنْ يكافح المصير المحتوم بأنْ عمد إلى بيع لحم حيوانات

نافقة ، وفي أحسن الأحوال لحم حمير وخيول شائخة ، ولكن كان عليه أنْ يدفع كل ما يربحه من مال كرشي لمراقب البلدية ومسئول البيطرة ، ورجل الأمن وأفراد دورية مكافحة الجريمة الاقتصادية ، وللصبيان الذين يدلّونه على صاحب الحيوان النافق ، ولصاحب الحيوان ، ولجار صاحب الحيوان وقد رأه ينقل شحنة اللحم غير المختوم بختم وزارة الصحة ، ولأفراد نقاط السيطرة العسكرية عند نهايات الشوارع الرئيسية .. لقد وجد عند نهاية كل عملية من هذا النوع أنَّه يخسر من رأسماله ولا يربح شيئاً سوى سمعة سيئة ، فكل هؤلاء الذين قبضوا ، كلهم بلا نقصان تحدثوا عن لحمه بلغة العارفين ، وفضحوه أمام القاصي والداني وصارت مجالس الرجال في المدينة لا تلعن الشيطان إلا ومعه اسم صاحبنا "جزار السعادة !" .. بائع لحم الفطائس والحمير !.

(5)

في العهود المزدهرة ، السابقة ، العهود التي لم يكن يحاسبك فيها أحد لأن شاربك أطول من المعتاد أو بسبب اللحية المثلثة التي ترصع حنكك (لا يسألونك إنْ كانت لحية متدينين أو مجرد لحية ديسكو لإغراء المراهقات؟!!) أو عن لون حذائك الرماني والقميص الأحمر الذي ترتديه ! ولا تمتد يد لتصفعك بقسوة لأنَّك لا تزال طالباً لم تذهب للخدمة العسكرية ، ولم تذق الفلفل الحار لترقص ألماً في المسيرات ، وأخيراً لا تنظرك العيون إلانظرة ريبة واتهام ، وبعد ذلك نظرة إدانة حين تطالع

أسمك وأسم أبيك في البطاقة الشخصية المهترأة من كثرة نقاط التفتيش! تدينك تلك النظرة بسبب اسمك الذي يخبرهم بدينك ومذهبك ومنطقتك ، ويسألونك إنْ كان عمك مشنوقاً بسبب انتمائه لحزب معارض ، وحسب تصانيفهم ومنخنياتهم وخطوطهم للطول والعرض ، يجدون أنَّ جدك السابع جاء من الهند وجدتك جاءت مع المغول الغزاة ! وبسبب كل هذا لا حصة لك في نفسط بلادك ، وأخيراً إذا قفزت كل هذه الموانع في سباقات الاستجوابات، فإنَّك لن تنجو من تلك الصفعة العظيمة عندما يسألونك ما سبب بقائك في بغداد وأنت من أهل الجنوب ؟! .

في تلك العهود المزدهرة ، كان عدد كبير من الكلاب يجول في المدينة والقصابون يدللونها برمي بعض العظام لها ، ولكن ما إنْ أغلقت الدكاكين أبوابها حتى غادرت الكلاب إلى أمكنة مجهولة ومات بعضها دعساً بالسيارات المسرعة ، وبقيت تلك الكلبة وحدها تنبش النفايات باحثة عن كسرة خبز ، منافسة بعض المغامرين من الرجال الذين تحدوا ظروفهم الصعبة ، وقد برزت عظام صدورهم وسقط شعر رؤوسهم بفعل سوء التغذية وسرطان الدم ، وأثناء تفتيشهم في النفايات كانوا يغنون بأصوات مبحوحة الأبوذيات التي تتحدث عن الظلم والفقد والحاجة ، والموت الذي يأتي مبكراً ، باحثين عن كسرات الخبز المسودة ، يجمعونها في أكياس ويفتتونها في دورهم بمطارق حديدية ، صائرة إلى دقيق أسود يعيدون خلطه مع دقيق الحصة ويعاد عجنه وخبزه.

(6)

"قلعة صالح " صامتة ، حزينة في تلك الظهيرة القائظة ، لا حصة لها في نفطها ، لا شيء فيها يوحي بالحياة ، والريح الساخنة الصافرة تخترقها من الشمال إلى الجنوب ، كانسة الأعشاب اليابسة وقصاصات الورق الصغيرة، مارة على الدور ، منزوعة النوافذ ، التي باع فرادتها أغلب أهل المدينة منذ عامين لتجار الحديد المستعمل ، الذي وفدوا من العاصمة لينبشوا هيكلها المتهالك واتبعوا النوافذ بالأبواب الداخلية – التي تم اعتبارها وفق قوانين الحصار زائدة – واستعاضوا عن كل ذلك الترف القديم بقطع قماش قديمة ، مهلهلة ، علقت في فتحات الجدران، والجوع يقضم بتؤدة وهدوء وصبر عجيب ، وأخذ الناس عندما طالت المحنة يتخلون عن سقوف دهورهم ، ينشبونها لاستخراج الهيكل المعدني وبيعه ، وحدها تلك الكلبة ، الوردية اللون – سابقاً – لم يكن لها بيت يؤويها، كانت تتبعها قبل سنة ثلاثة جراء في رقابها لطخات سود إلا أنَّها تعرضت للخطف والافتراس من كلاب أخرى متوحشة جاءت مصادفة يوم مجيء رجال ميليشيا الدولة والأمن وهم يبحثون عن الفارين من الجيش ، لإيقاع عقوبة قطع صيوان الأذن ووشم الجبهة بصليب الحديد المحمي على النار بمن يقبضون عليه ، وكان الجرو من جرائها يضيع في زحمة الكلاب المتوحشة وعراكها ، والتراب المثار حولها ، متحوّلاً في نصف دقيقة إلى مزق وقطرات دم مدافة بالتراب ، والأم تنظر من بعيد بعينين دامعتين ،

باحثة في أثر تلك الهجمة الشرسة عن جروها ، متشممة كل قطرة دم مدافة ونتفة شعر ساقطة هنا وهناك ، كانت لا تجرؤ على النباح بوجه ذلك العالم الشرس .

(7)

في المساء تنبح ، هي في الحقيقة تطلق أصواتاً تسمى – جزافاً – نباحاً ،وفي الصباح تتأمل ما فعله نباحها من حركة الاشياء حولها ، ما هي المدة الحقيقية التي يحتاجونها لتحويل الكلبة إلى نمر ؟! أحضر الصحفيون الأجانب الكاميرا المحمولة في سيارة الجيب ، التي كانوا يستقلونها لتصوير المدينة الهالكة، التي كانت في يوم من الأيام مكاناً للانطلاق منه لزيارة الآثار في مدن سومر وأكد القديمتين ، ويقصدها من يبحث عن الهدوء و الطمأنينة ، نظر إليهم أهل المدينة وهم يضعون فوق وجه الكلبة قناع نمر ويربطون فوق قائمتيها الأماميتين والخلفيتين وصدرها قطع مطاط وسرعان ما نفخوها بمنفاخ وبدأت أجزاء المطاط تتمدد ومع النفخ بالهواء تحوّل شكل الكلبة إلى نمو متوحش ، مخيف ، ولا يحتاج وجه النمر غير لطخة من هنا ولطخة من هناك بفرشاة المكياج التي شرع جاسم الخسران يفعلها في الأماكن التي تحتاج إلى أصباغ ، أخذت عيون الناس تلتمع بأمل غامض ، ربما بأستعادة السقوف الكونكريتية بدلاً من سعف النخيل وأوراق الكارتون وطبقات النايلون وكانت تراقبهم فتيات صغيرات، حافيات بوجوه شاحبة ، يمسكن ستائر النوافذ الحائلة الألوان وأكياس

الخيش، يهرشن شعورهن الشعثاء ونظراتهن زائغة ، مدهوشة ، لما يبدو من جمال النمر وبشاعة تقليده بكلبة جائعة ، المنظر بأكمله كان كأطياف حلمية صورت بالأسود والأبيض وتم حشد الأشخاص في لقطات مقطعة، ملصقة في فيلم استعراضي قصير تم تصويره من أيام الاستعمار الإنجليزي ، العسكري للبلاد ، وكن كمن يسألن القادمين عن أسباب مجيئهم ؟! ولماذا يحولون تلك الكلبة المسكينة، المسالمة ، الجائعة ، إلى نمر متوحش ؟! كان الرجال الشقر ببنطلوناتهم القصيرة ونساؤهم بشعور بدت كسبائك ذهب مجدولة يضبطون زومات كاميراتهم لنقل حركة الريح العابثة بالستائر ، المارقة في دور فارغة ، محركة السقوف الهشة ، ناقة أكوام التراب وسفها على صورة الكثيرة ، وهو يقطع فطيرة عيد ميلاده ، على جدران بيوت المدينة والمدارس المغلقة ، مسروقة الأبواب والمصاطب والسبورات ، وحدها كانت الكلبة تهوم بين الحين والآخر باتجاه الفطيرة المرسومة على الحائط وفي ذهنها صور مشوشة عن طعام لذيذ ، فتشب واقفة على قدميها لاعقة بلسانها صورة الفطيرة الضخمة ، محاذرة أن يمس لسانها المُمسكة بها كف ضخمة احتلت قاع الصورة بأكمله.

(8)

خلال فترة زمن قصيرة تحول المغامرون ، الباحثون عن أسباب استمرار الحياة إلى جمع نوى التمر بعد أنْ عزَّ على الجميع أنْ يعثروا على كثرة خبز في تلك النفايات اليومية التي احتوت تراب البيوت الرطب ، ونغير أسلوب غنائهم، فصارت كلماتهم تتحدث عن أشياء تجئ دائماً متأخرة، برؤوس صلعاء ، ووجوه وأسنان صفراء ، وأفواه كريهة الرائحة بملابس مهترئة ، باهتة ، أغلبها ملابس جنود عتيقة ، وتكومت النفايات بعشوائية على جانبي الطرق بأمر المسئول الحزبي لئلا تعرقل مرور سيارات الأمن المسلحة بالرشاشات الثقيلة ليلاً ونهاراً ، ولتحافظ على الصور المتكررة على الجدران من العبث وكتابات اليائسين ، ويجمع ذلك النوى في أكياس وبياع ليطحن بعد ذلك ليضاف إلى خبز الناس الأسود لزيادة كميته.

(9)

الآن ، الكلبة تحولت إلى نمر وأخذت تراقب ذلك الكرنفال الصحفي بحذر ، لم تستطع أنْ تفعل ما كان يفعله مغامروا المدينة ، حاولت مرة أنْ تقضم نواة تمر ، فقدت جزءاً من أحد أسنانها ، فكلما نظرت إلى نواة تمر بعد ذلك اعترتها ذكريات مريرة غامضة عن ألم ممض سينالها لو حاولت أنْ تفعل ما يفعله أصداقاء النفايات ، الذين يغنون طوال وقت نبشهم ، كانت قريبة من مجموعة الأجانب التي تصور المدينة وذنبها بين قائمتيها الخلفيتين ، لكنه لا يظهر بسبب المطاط المنفوخ فوق جلدها الحقيقي ، بدت وكأنها لا تقوى على الحركة ، بعينين غائمتين أرهقهما الحر وصور

اليقظة عن ولائم خرافية ولحم خراف يقدم للمارة ، حتى أنَّ سيدة من البعثة الإعلامية الأجنبية داعبتها بالإشارات من بعيد ، ومرت في ذهن المرأة فكرة أنْ تبدأ بتدريسها حالاً ، وحالما بدأت ، المرأة تعطي أوامرها للكادر وتشير إليها بالتقدم ، بركت الكلبة بكل أثقالها وأحزانها وجوعها وقفزت مارقة كالسهم ، بحركة انتحارية أخيرة صوب ساق السيدة الأجنبية واقتطعت بأنيابها قبضة لحم بحجم الكف من ربلَتهَا وسط دهشة الجميع وأرتباكهم ، تاركة تجويفاً دامياً في ساقها ، وتعالى صراخ السيدات وازدحم الرجال حولها وأمسكت الأيدي بها لئلا تهوى ساقطة ، الكلبة التي تحولت إلى نمر مفترس أنسلت هاربة بصيدها الثمين ، وأخذت اثناء ركضها تقلب ما اقتطعته من ساق المرأة في تجويف خطمها قبل أنْ تبدأ بالمضغ ، بادئة عهدها الوحشي بهروب سيطول زمنه كثيراً.

المضحِكة

لم يعرف أحد من صاحب فكرة هذا النوع الجديد من المقاهي ، وقد بدا لهم صاحب مقعى الفكاهة أفاقا أو من

الذين ينتظرون الفرصة السانحة ويخلقونها من اللاشيء إذ لم تأت ولا يكفيه خلقها ، بل يطورها ويجعلها تنطق بلغات عديدة وتقرأ وتكتب في فترة قصيرة ، في البداية علق إعلانا كبيرا فوق واجهة المقهى: "مقهى الفكاهة"!.

وكتب إلى الأسفل من ذلك بحروف أدق : متعوا أنفسكم لمدة نصف ساعة بالضحك المتواصل.

من يمر أمام المقهى ويقرأ الإعلان يبتسم أول الأمر، ويقهقه بعد ذلك ضاحكاً ، فالضحك كما هو معروف عدوى تنتقل من الآخرين إلى غيرهم ، يحاول آخر أن ينظر من خلال زجاج واجهة المقهى والفضول يسيطر عليه باحثاً عن ضحكة هاربة بين المقاعد وعتمة المكان ، أضاف صاحب المقهى فيما بعد تحت الإعلان بخط عريض أحمر : "نحن لا نمزح .. جرب المضحكة مرة واحدة ، وستأتي بعد ذلك كل يوم ..".

وفي فقرة أخرى : "عالج أمراضك المزمنة بالضحك المتواصل".

وللأسفل من ذلك قائمة طويلة بالأمراض التي تعالجها بجدارة "المضحكة" بعد كل دورة ضحك يخرج الرجال والنساء والأطفال ووجوههم محمرة ، وما تزال الضحكات أو بقاياها ترفرف فوق شفاههم فيثيرون في الشارع الذي يستقبلهم بهجة لاحدَّ لها قبل أن يتفرقوا في الفروع والأزقة وهم يطلقون ضحكات مفردة هنا وهناك وتنتشر هذه الفرحة في الفروع

المتشابكة والأزقة ، وتعلو همهمة تنم عن مواعيد أخرى قادمة لضحك جديد.

بمرور الأيام أخذت الصفوف تطول أمام المقهى للتمتع بنصف ساعة من الضحك المتواصل ، أعداد كبيرة من الناس : الغني والفقير المثقف والأمي ، القادم من الريف أو من المحافظات في صف طويل غير متجانس كأنما ينتظرون حدوث معجزة وشيكة ، الغريب في الأمر أن لا نقود تدفع عند الدخول ، بل في الخمس دقائق التي تسبق الخروج.

من الدور يجئ طفل يثير شكله الضحك وقد وضع على رأسه طربوشا وملأت الأصباغ وجهه وبيده قبعة قش يجمع فيها ما تجود به الأيدي ، وفي تلك اللحظات السعيدة التي لم يتمتع أحد في حايته بمثلها تصبح النقود بلا معنى : أوراق ملطخة بأحبار الطباعة ، حديد موشي بالحديد، بل أن اللحظة التي تمتد فيها الأيدي لتدفع المال لتزيد الفرحة في قلب الطفل هي اللحظة الضائعة التي ينبغي أن تتم بسرعة ، فيرمي الجالسون ما تخفيه جيوبهم من مال والضحكات تفرقع في كل مكان من قاعة المقهى الواسعة.

تنتشر على جدران القاعة صوة رجال ونساء يضحكون وقد مُدت السجادات التي يجلس عليها الزبائن لشكل مستطيل وسطه دائرة فارغة تحتلها المضحكة ، وفوقها ثريا معلقة : آلة خضراء تشبه في شكلها العام جهاز للاستنساخ وقد ألصقت على كل جانب منها صورة لوجه ضاحك ، فم واسع ينتفخ ضاحكا ، فكان جباران ينفغران بأقصى طاقتهما ،

لتصهل الحنجرة ، اللسان يدوّر ضحكة مضخمة ، مكررة ، وعيون مبللة بالدموع من شدة الضحك وصور رؤوس مفلطحة ، قرعاء أو معلقَّة بالعقَّال العربي ، ووجوه ملونة بخطوط عشوائية ، وألوان عجيبة ، كمهرجي السيرك ، في وضعيات مختلفة ، وضجيج عاصف من الضحك : سود وبيض وشقر، سديات وسادة ، فقراء وأغنياء ، أطفال وكبار ، أينما وليت وجهك رأيت وجوههم الكاسرة تزار بضحك مجنون.

في ردهة استقبال صغيرة وقبل أن يمر الرواد باتجاه قاعة المقهى ، هناك طبيب يفحص الداخلين بسماعته ليعترف مدى قوة القلب لتحمل عمليت الضحك ، فأن لم يجد قلب القادم يتحمل فصول المهزلة يحيله إلى موظف آخر إلى جانبه فينبهه إلى خطورة الدخول ، فإذا أصر الرجل على الدخول جعله الموظف يوقع ورقة يسميها ورقة تحمل المسئولية ، فيما إذا حدث له مكروه ، ويأخذ منه تأمينات نقدية لنقله بعدئذ على حساب المقهى إلى أقرب مستشفى ، وأن لم يحدث له شيء أعادوا ماله بعد انتهاء دورة الضحك الرابعة ، كان كل شيء مرتباً ونظيفاً كما يحدث في الغرب ، ولم يكن أمام الناس سوى احترام هذه الإجراءات التي تنم عن شعور عال بالمسئولية للحفاظ على حياتهم وسط طوفان الضحكات التي تأتيهم كموجات البحر عبر الممر في القاعة الكبيرة ، المملوءة بالناس المسوسين بوباء الضحك.

في المضحكة ثلاث درجات يقسمها ويديرها موظف مختص بالآلة ، بملابس رسمية اختيرت بدقة وتشبه في ميزاتها بدلة جنرال عسكري ماعدا

القميص الذي امتلأ عند الصدر والظهر بالأوسمة والنياشين ومطبوعات ملونة لوجوه تغرق بالضحك ، تبدأ الدورة بإطفاء أضواء الثريات في القاعة ، فيصمت الزبائن كأنهم يختبرون الآلة : "أحقاً تمتلك هذه القدرة الأسطورية في الإضحاك ؟ ".

ويحل الظلام لحظات ، بعد ذلك يدير الموظف الأله ببطء شديد إلى درجتها الأولى ، فيضيء ضوء أخضر يسيل لونه بهدوء غريب على الوجوه في القاعة ، يرتعب الحاضرون أول الأمر ، فالوجوه التي يسقط عليها الضوء تتحوّل إلى أشكال غريبة :

الأنوف تنفرش بشكل مثير ، العيون تسيل فجأة فتصبح شقوقا ضيقة ، الشعر يتصلب كأسلاك مهتزة ، وموسيقى حربية تطلقها الآلة ، وتتناغم المارشات مع شدة الضوء ، الألحان المثوثة تجئ مثل شلال ماء بارد يمس الوجوه ويدخل فراغات الملابس فيدغدغ الاباطات وأسفل الرقاب وباطن الأقدام والجنوب ، فتتصاعد الضحكات، ويسبب هذه الانفجارات الضاحكة يتغير شكل الضاحكين : الرؤوس تتحول إلى مستطيلات أو مثلثات أو مجرد خطوط وهمية تنتهي في اللانهاية ، ما وراء السقوف الكاذبة والحقيقية ، والعيون تضيق فتصبح كخروم الإبر والأيدي تطول حتى وكأنها تستطيع أن تنوش جيبا من جيوب الزبائن أو شيئا ما في الجانب الآخر من المدينة دون أن يمنعها مانع ، الأقدام تتقوس كأنها ستصل أقطار النجوم والمجرات ، فترسم الأعضاء المبتورة على السقف كغابة لا مثيل لغرابتها وازدحامها.

يدير الموظف الذي هو في رداء الجنرال موجة الآلة وهو الآخر يغرق في ضحك مستمر وهو أكثر الموجودين تعرضا لما تبثه الآلة من أشعة وموسيقى تأثيرات خفية ، وفي الدرجة الثانية يتغير لون الضوء من الأخضر إلى الصفرة الداكنة ، ويصاحب ذلك التغيير في الآلة نبرة أخرى من الموسيقى الراقصة ، فيكون تأثيرها مشابهاً لأصابع من المطاط تجوس تحت ملابس الجالسين ويختلط برائحة صندل محروق ينبعث من ثقب فيها ، وذلك الدخان الخفيف الذي تطلقه الآلة بسرية ويتخثر في أفواه الضاحكين ويختلط بلعابهم متحولا إلى قطع صغيرة مدورة من النعناع ، فيدغدغ الطعم الحارق أفواههم وأجوافهم ، فيجعلهم ذلك يتمايلون ذات اليمين والشمال واللعب يتساقط من أفواههم التي لا يستطيعون السيطرة عليها وإمساكها من شدة الضحك ، ويؤثر الضوء الأصفر في حدقات العيون فيتسرب عبرها إلى كل خلية ، مهيئة الأشكال الواقعة ضمن الرؤية إلى أشكال غريبة ، لم تقع عليها العين من قبل : قطع قماش محلقة فيف الفضاء ، ملغية البعد الثالث للأجساد ، فيبدو الرجل بطول وعرض فقط ، مثل لوحة تتحرك طائرة قريبا من السقف بوجوه شوهتها التجاعيد وأطراف مستطيلة ، فتتصاعد ضحكات بلهاء ، لا معنى لها ، وليست في الحقيقة سوى أصوات في الفضاء ، صادرة من القلوب الحزينة ، ماسحة الهموم، مغلفة بالإحباطات مقادة إلى التلاشي ، ويتحوّل كل ما يقع خارج القاعة إلى ضباب لا تخترقه العين وتتحول الأفكار المرددة بشكل كلمات إلى أصوات تنتقل عبر الفراغ فتصطدم بالعمارات والأبنية ، وترتد مختلطة

بأبواق السيارات ونداءات الباعة ، ولا شيء يحدث ، لا شيء يُفعل ويكبر ، ويتطحلب سوى الأفواه وتكشيراتها الضاحكة.

أخطر ما في آلة الغرب المتحضر درجتها الثالثة ، إذ قبل أن يديرها صاحب المقهى يمر طفل وعلى رأسه مخروط ملون وبيده قبعة من أعواد القصب ، فيفرغ الناس ما في جيوبهم بنشوة يقل نظيرها ، إذ تكون تلك اللحظة ، هي لحظة التطهير التامة ، لحظة التمتع الحقيقي بعالم وهمي مهدت له درجتا الضحك الأولى والثانية فذابت الفروق بين ذات وأخرى ، وانمحت قوانين العالم الأرضي الثابتة ، وتلاشت الغرائز . وتحوّل الناس إلى أطفال كبار ، حيث الأوراق النقدية لا قيمة لها على الإطلاق وتتسرب الضحكات المتعبة عبر النوافذ وفتحات الأبواب مثل نهاية طوفان ، وحين تنتهي فقرة الطفل البهلوان الذي يجمع المال ، يدير الرجل شيئاً في الآلة فتصدر أزيزاً خاصاً ، ثم يتغير لون الضوء الساقط على الوجوه إلى اللون الرمادي فيحيل الجالسين إلى مخلوقات أخرى ، فإن كانت ثمة صفات تربط بين حيوان و أحد الزبائن ، كأن تكون له أذنان طويلتان ، تحوّلت صفاته الأخرى بتضخيم مفتعل إلى صورة الحيوان المطابق ، فيكون فيلاً أو حماراً وحشياً أو كلباً سلوقياً ، فتنفجر القاعة بضحكات مدوية ، الضوء يدور في القاعة ، كأنه يكشف عن غابة مملوءة بالحيوانات المستفزة ، ويتحول صاحب المقعى الذي يدير آله الضحك إلى خروف كبير بقرنين معقوفين : مجموعة كبيرة من الأشكال الشائهة والحيوانات الضاحكة ، والأيدي تمتد مؤشرة إلى بعضها البعض مندهشين من حالاتهم الحيوانية وكل منهم ينبه صاحبه دون أن يستطيع التفوه

بكلمة واحدة من شدة الضحك ، فينبهه الآخر بدوره إلى شكله الفج الذي يمزق الكليتين ويفرع المثانة ضحكاً ، تتحول وقتذاك القاعة إلى عالم ضاج بالضحك والتبول الاضطراري والشهيق والزفير والسعال المتقطع ، والأيدي تمتد نحو الخاصرات من نقص الهواء : نساء أختفين تحت دثار من الملابس الملونة تحولن فجأة بتأثير الآله إلى بقرات سمان وقبرات عوراء وأرانب ولبؤات مستفزة ودجاجات نحيفة وأفاع كبيرة ملتوية ورجال تحولوا إلى قردة ووحيدي قرن وكلاب سلوقية وثيران وديكة عرجاء تفغر أشداقها وخياطمها ، إلا أن النسبة الأعظم منهم تحولوا إلى خراف هزيلة ، ضاحكو .

في ظهيرة قائظة

(1)

توقفت الطائرات الأمريكية فوق مدينتنا الصغيرة، وأخذت تمطر العاصمة بوابل من صوارخها، ونظر أهل مدينتنا إليها

مندهشين، فهي المرة الأولى التي يرى فيها الناس طائرات واقفة في السماء، وتبدو لهم كنقط رمادية شاهقة كثيرة العدد، ومن مكانها القصي تطلق شهباً بيضاء صوب الأفق، جدتي همست وهي تمسح قطرات عرق باردة من فوق وشمها الأزرق عند أسفل الحنك بفوطتها السوداء، قالت مسترجعة الماضي البعيد: "كل هذا حدثنا به جدي يرحمه الله".

فسجل قولها أحد المبتدئين في حزب السلطة الحاكمة على شريط كاسيت صغير وأرسله بالبريد المضمون إلى مديرية الأمن العامة ، وعندما انتهت موجات القصف الصاروخي ، أعلنت حكومتنا انتصارها بمرسوم جمهوري أُذيع من خلال البث التليفزيوني التجريبي بعد أن تم إصلاح محطات تليفزيونية بديلة ، وأذاع ذلك المذيع الأعمش ، المسئول عن أخبار الانتصارات الحربية ، والزيادات الدولية في الرواتب ، وقال فيما قال عن مدينتنا الصغيرة ، إنها مدينة خائنة ومنبوذة لأنها سمحت للطائرات الأمريكية بالوقوف في أجوائها وهي تؤدي مهماتها الإجرامية وتقصف العاصمة بصواريخ الموت، وأظهر التليفزيون بعد ذلك صورة قديمة – لجد جدتي تم انتزاعها من سجل الحالة المدنية وطالبوا بالقبض على – الجاسوس – حياً أو ميتاً ، وبرروا تجسسه بهامش طويل قالوا فيه أنه كان يعرف بموعد العدوان الأمريكي ولم يبلغ السلطات الأمنية بهذا الأمر الخطير ، وأصبنا بالدهشة جميعاً ، حينما سمعنا صوت جدتي الهامس يخربش في التليفزيون كدليل لا يقبل الدحض على خيانة جد جدتي المزعومة ، وكل عائلتنا تعرف أن المرحوم قد استشهد في البلقان حين كان

مجنداً في جيش الدولة العثمانية ، واعتبرنا الموضوع أن ثمة تشابهاً في الأسماء والصور ، وبحالة الفوضى التي تعيشها الحكومة بعد الضرب المبرح الذي نالته مبانيها الأمنية والاستخبارية ، المنتشرة في الوطن من جنوبه إلى شماله.

(2)

في ذلك اليوم الاستثنائي كان الناس يحقدون ذاهلين بتلك النقط البيضاء الصغيرة ، شاهقة الارتفاع ، ولم يكن بيد أحد أي حيلة لإيقاف ذلك البلاء ، ورأى الرجال أن يفعلوا شيئاً مفيدا ، فأرسلوا عمي إلى إدارة البريد والهاتف ليتصل بالعاصمة ويبلغ رئيس الجمهورية شخصيا بوجود الطائرات المعادية فوق مدينتنا ، ولكن عمي – بعد وقوف طويل – في إدارة الهاتف – وجد خطوط الهاتف مقطوعة مع العاصمة ، فعاد من جديد إلى حلقات الناس ومشاركتهم لغطهم وتوقعاتهم فيما تفعله تلك الصواريخ بالناس وبيوتهم في العاصمة.

(3)

بعد هذه الأحداث المروعة أصبحت أجواء مدينتنا مكاناً جيداً لوقوف الطائرات المعادية والرمي من مكانها إلى مكان تشاء في البلاد مما دفع حكومتنا أن تعلن بعد كل موجة قصف أن مدينتنا خائنة وساعدت على إتمام فصول العدوان على بلادنا ، أما عمي الذي حاول الاتصال

بالرئيس في ذلك اليوم فقد غدا بطلاً وطنياً ونصبت له البلدية وسط المدينة تمثالاً من البرونز وكان التمثال يحمل في يده الحجرية سماعة هاتف ضخمة من الحديد وتنساب منها خيوط كثيرة مقطوعة ، وكنت مع زوجة عمي ، التي لم تنجب أطفالاً أبداً ، بالرغم من زواجهما قد تم منذ عقد من السنين نأخذ سطل الماء والفرشاة كل صباح جمعة لنغسل عن التمثال ما تعلق به من سف الرمال طوال الأسبوع ، وكانت زوجة عمي تحمم التمثال كأنما تحمم ابنها لها وتدلك رأسه جيدا باللوفة ، وتهدهده مغنية بسعادة منقطعة النظير ، ؛ كنّا في تلك الأصباح نترك عمي نائما في غرفة الضيوف الواسعة والعصافير تدخل إلى غرفته من النافذة المفتوحة ، وتخرج بعد ذلك من فتحة الباب المخلوع ، الذي باعه عمي أخيراً في سوق الأشياء المستعملة واشترى بثمنه خمسة كيلوغرامات من الدقيق لم تصمد طويلا أمام لهفتنا للخبز الساخن.

(4)

عندما جمعنا حزبو الحكومة في قاعة المدرسة المخصصة للامتحانات السنوية ، ألقوا علينا خطاباً نارياً عن أهداف العدوان الأمريكي الموشك الوقوع ، وعرفتُ – على صغر سني – في ذلك اليوم ، أن الأمريكيين يستهدفون حصتنا الشهرية من الدقيق والزيت إضافة إلى استهداف تمثال

عمي الشامخ وسط المدينة ، أما هدف الأمريكيين المُعلن –كما قال رئيس الحزبيين السمين – (اغتيال رئيس الجمهورية) ، فذلك لن يحدث على الإطلاق بسبب أن ثمة خمسة نسخ متطابقة للرئيس في سراديب متفرقة ولا يصل إليها عفاريت السماء ، وضحك وهو يهرش كرشه المندلقة فوق رحلة الدرس الصغيرة.

بعد عودتي من المدرسة أبلغت عمي بكل ذلك ، فضحك وقال : "أعرف كل هذا الذي ستقوله ، الأمريكيون سيزيلون تمثالي من وسط المدينة بصاروخ خاطئ من صواريخهم" ، ثم انتفخ كالطاووس وقال هامساً : "سمعت ذلك من فم رئيس أمريكا ذاتخ حين كان يخطب في مجلس الكونغو .. " فصحح له عمي الأصغر الذي كان جالساً يراجع في كتبه المدرسية : "الكونغرس" وليس الكونغو فهز عمي الأول رأسه موافقا وتمتم : "نعم هذا ما قصدته بالضبط".

(5)

في ليلة الطائرات ذاتها أخبر جدي جدتي أن لديه أمنية يود تحقيقها قبل أن يموت ، كان في تلك الليلة بصحة جيدة ، فقالت له جدتي ، هازئة من خوفه الدائم من الموت ، وكانت تخشى أن تعنفه بقسوة لئلا يقول لها شيئا أمام زوجة ابنها يعكر مزاجها ، لكنه هذه المرة قال وعيناه تتعلقان بوجه

جدتي الملفوف بالشيلة [2] السوداء : "أريد سمكة كبيرة مشوية وقرص طابك [3] ساخناً".

أفردت جدتي كفيها في الهواء ، وصاحت : هذه أمنية ؟ .. لا يتمنى المجنون مثلها في هذا الوقت .. وأخذت تضرب الأمثلة لجدي المسكين عن الصعوبات التي يواجهانها لتوفير خبز الأفطار والعشاء ، فعلت شفتيه ابتسامة ذابلة ، وكان ينظر إلى زوجته بعينين نصف مغمضتين دامعتين ، لكنه لم يقل شيئا – فقط – وضع كفيه على فمه ، كان جالساً على سجادة حائلة اللون ويتكئ بظهره على الجدار ، وبقي هكذا يداعب حلمه بينه وبين نفسه حتى نام ، عرفنا نومه من ارتفاع صوت شخيره وميلان رأسه إلى الجانب ، فقد كانت الكهرباء مقطوعة وضوء الفانوس لا ينير كل أجزاء الغرفة بدرجة كافية.

(6)

فترة طويلة والعائلة برجالها ونسائها تستعد للحدث السعيد ، والخبر ينتقل من فم إلى آخر : جدتنا المباركة تزمع شراء سمكة كبيرة وستقيم عما قريب وليمة طابك خرافية، وأخذ أعمامي يتوافدون من هنا وهناك من أطراق المدينة مع نسائهم – كل عم من أعمامي النشامى لم يكتف بزوجة واحدة

) الشيلة – غطاء للرأس تستعمله النساء في سط و جنوب العراق[2](

) الطابك – نوع من الخبز يصنع من دقيق الرز ويعرف صنعه أهل الجنوب و الوسط .[3](

بل استنفذ السماح الشرعي إلا أقصاه – مع بناتهم وأولادهم، والسمكة صارت في أذهانهم وليمة سمك عظيمة، وقرص الطابك اليتيم صار أقراصا كثيرة، كان عمي صاحب التمثال يسخر من جووع جميع إخوته ويعزف لبنات إخوته بناية القصبي ليرقصن أمامه رقصات الكاولية [4] ويطلب منهن المبالغة بهز الرأس ورفعه إلى السماء ،فتبدو وجوههن الصفراء، الممصوصة، وعيونهن الغائرة في حفر سوداء أكثر تعبيرا وأشد بؤسا ودليلا لا يقبل الدحض على شدة الفقر وسوء الأحوال، وفي تلك الظهيرة، القائظة الضاجة بالناس، كنت أراقب جدتي المرتبكة أمام هذا الحشد العظيم من الأولاد والبنات والأحفاد والزوجات، وهي لا تعرف كيف تُطعم كل هذه القبائل المتآزرة على فضحها، ووحده الله استجاب لها وأنقذها في ذلك اليوم من هذه المعضلة التي لا حل لها، فقد وضعت الجدة الحطب في التنور وما أن اشتعلت النار ومدت عصا التشجير داخله حتى حدث انفجار مروع، ورأيت ذراع جدتي بثوبه الأسود المزركش يطير في السماء، بدت جدتي في البداية غير مهتمة بما حدث كأنما الأمر لا يعنيها وأنها تبحث عن ذراعيها المبتورة ، والتي سقطت في مكان ما من جوف التنور ، ثم رأيتها وقبل أن أسألها عن سر هذا الانفجار الذي سمعته تتهاوى ساقطة ، مثل شجرة مقطوعة.

(7)

---

(4) الكاولية – الغجر .

بعد أن فقدت جدتي ذراعها في ذلك اليوم الاحتفالي منع أعمامي ، أولادهم وبناتهم من اللعب بالحاجات المعدنية ، الصدئة والجديدة ، التي يجدونها هنا وهناك ، وأخذت كل امرأة تريد إخافة أولادها من اللعب بتلك الحاجات المشبوهة ، تأتي بوالدها إلى الجدة المسكينة وتطلب منها أ، تُظهر ذلك الجذمور البشع ، الذي تبقى من ذراعها المبتورة للأطفال لإخافتهم فلا يعاودون ذلك اللعب المخيف ، وبعد أن برئت جدتي تماما من جرحها أعادت بناء تنورها بكف واحدة وتصميم لايلين ، معتقدة أن البيت الذي يفقد تنور خبزه يفقد بركته ويقطع الله رزقه ويُصاب أصحابه بمرض البواسير.

عاودت جدتي – هذه المرة – بسرية تامة تنفيذ رغبة زوجها مما جمعته من مال أولادها وبناتها وأقربائها وجيرانها ومعارفنا بعد بتر ذراعها ، كان كل واحد من هؤلاء حين يجيء ليرى جذمورها الملفوف بالنضمادات القذرة يضع مبلغا من المال تحت وسادتها ، وهكذا جمعت جدتي ثمن السمكة الكبيرة وقرص الطابك ، واشترت كل ذلك من السوق ، وأتت به إلى دارنا بالرغم من الدوار الذي تشعر به ، كلما بذلك جهدا كبير، وشاء الحظ السعيد وحده أن تظهر الطائرات الأمريكية اللعينة مرة أخرى في سماء مدينتنا ، فأصطحب عمي أخوته والجيران وهم يحملون عصيهم وفالاتهم [5] لابعاد هذه الطائرات المعادية عن سماء مدينتنا بأي ثمن ، فيكفي ما نالته مدينتنا في المرة السابقة من نعوت الخيانة والتواطؤ والشتم الحكومي الصريح ، حتى أن إحدى الصحف الحكومية نعتت أصول أهل

) أعواد القصب ووتثبت في نهايتها مسامير مدببة وتستخدم في صيد السمك عادة في جنوب العراق ووسطه .[5](

المدينة بأنها هندية أو فارسية وعانت بعدها من اختفاء خدمات الدولة ورفض طلبات أبنائها بالقبول في الجامعات وتأخير حصصها التموينية وإغلاق طلبات أبنائها بالقبول في الجامعات وتأخير حصصها التموينية وإغلاق مستشفاها الوحيد ، وحفر طرقها الصالحة بحجة البحث عن الآثار ، وسجن شبابها بسبب لحاهم النامية التي لم تمر عليها أمواس الحلاقة منذ فترة طويلة ، بسبب أسعار الأمواس المرتفعة ، وإطلاق سراح مجرميها قبل أن ينهوا محكومياتهم ليعيثوا بعد ذلك في المدينة فسادا ، ولكل تلك الأسباب وأخرى وطنية حاول رجال مدينتنا ابعاد هذه البلايا الطائرة وهم يلوحون لطياريها بعصيهم وفالاتهم، فوق أعلى تل للنفيات في المدينة ،مهددين والزبد الأبيض يتجمع في زوايا أفواههم ، وأظهروا شجاعة قل نظيرها وبعدها خاف الأمريكيون من مغبة السقوط فحلقوا عاليا وعالياً وعالياً.

(8)

أنا الوحيد الذي استبقتني جدتي لاساعدها وأشاركهما أيضا وليمتهما السرية ، تركنا جدي على حصيرة القصب في ظل نخلة البرحي وسط الدار وهو يبتسم كعادته وينظر إلينا بعينين نصف مغمضتين ، دامعتين ، وقد وضع قدميه مرفوعتين على جذع النخلة ورأسه على وسادة صغيرة تتيح له رؤية شاملة للدار بأبوابها ونوافذها المخلعة ، خالية من الأثاث ، ممسوحة البلاط ، تعبث فيها الريح والعصافير ، وفي زاوية الرؤيا تنور جدتي الجديد

وجدتي بثوبها الأسود وشيلتها حول رأسها وقد عقدت ثوبها من جهة الذراع المبتورة لئلا تعرقل يد الثوب الفارغة عملها ، وكنت كلما أرى جدتي تنجز شيئا مهما من العمل أعود لأخبر جدي ، فأراه يبتسم لي وينظر بعينيه نصف المغمضتين ويُخفض قليلاً من ارتفاع قدميه ، فأرجع إلى جدتي مهللاً ، فيزداد إصرارها على إكمال كل شيء كما يتمنى الجد ويشتهي ، وبدت منتشية ، حتى أنها أخذت تغني أغنية قديمة يحب جدي سماعها.

(**9**)

عندما أكملت جدتي كل شيء ، وضعت السمكة المشوية في (صينية) نحاس متسعة – سلمت من البيع ولم يستطع عمي العثور عليها في المرة الأخيرة حين أقام مزاده الكبير لأثاث بيتنا في سوق الأشياء المستعملة – ورأيت البخار يتصاعد من السمكة المشوية وقرص الطابك السميك برائحته الطيبة – اعترفت لحظتها مع نفسي بأهمية المشاريع التي يخطط لها جدي وتنفذها جدتي – كانت جدتي تغطي كل تلك النعم بعباءتها ، اقتربنا منه ، كانت ذات الابتسامة على شفتيه وقد أغمض عينيه واستسلم لرقاد عميق ، قالت جدتي هامسة :

انهض قبل أن تجئ القبيلة .. "كانت عيناي على السمكة والخبز عند قدمي جدي ، وجدتي تقلبه يميناً وشمالاً وتضع رأسها على صدره وتنصت ولم تبد على وجهه أية سعادة ، كان جدي ميتاً.

الجزء الثالث

اللفافة العظيمة

لم يكن يملك شيئاً غير نفسه وداره، كل الأشياء الثمينة التي يملكها باعها : التليفزيون الصغير، واستعاض عنه بلذة التفكير بمصير العالم صامتاً ، الكراسي ، كرسياً ، كرسياً ، ملابسه : بدلة ، بدلة وقميصاً بعد قميص ، وتصرف بأحذيته ، حتى لم يبق عنده غير مركوب بنصف عمر يستخدمه لقضاء حاجاته! باع عدة حلاقته ، ومرآة كبيرة كان يملكها لرجل يشتغل بيع الأشياء القديمة !

كان كل يوم يختار حاجة من حاجاته ليبيعها ويعيش بثمنها، حتى جاء اليوم الذي لم يبق عنده شيء غير كرسيه الهزاز الذي اشتراه قبل وقت طويل من سوق الأشياء المستعملة، وقد استعاض عن الأشياء التي باعها بأدوات بديلة، لم تكن غير أشياء تالفة لا قيمة لها، استعاض عن "الطباخ" الفخم بجولة رخيصة، واستبدل فراشه بكومة من قطع القماش القديمة المعبأة بكيس من النايلون خاطه بنفسه، وباع كتبه كتاباً كتاباً ! جلس الآن وحيداً فوق كرسيه القديم يفكر بالفطور، والغداء، والعشاء، وهو ينظر إلى داره الفارغة، ويفكر بكتب التراث التي قرأها منذ شبابه ، وعدم استطاعته كتابة بيت واحد من الشعر، دون أن يظهر فيه الاختلال في الوزن ، والزحاف اللعين ، الذي يسرق النوم من عينيه، والحيرة في اختيار

القافية المناسبة ، الجميع يسمونه الشاعر ، وهو يعرف إنه ليس بشاعر ! لكنه يصمت أمام تسميتهم له كمن لا حيلة له، وهو في حقيقة الأمر غير مستاء لهذا بل كان فرحا بهذا المجد العظيم ! الذي أسبغه عليه الجاهلون ، ومن جديد يفكر ويعاود التفكير بإنَّه لا يملك من حطام الدنيا سوى هذه الدار ، ويتساءل أحان دورها أيضاً ؟! وهو يملك معدة عظيمة ، عليه أن يحشوها بالطعام كل يوم ! وفكر، والدمع تترقرق في عينيه : إنَّها ذكرياته القديمة ، أيبيع تلك الذكريات ؟! في اليوم الأول من جوعه العظيم كان مصمماً على البقاء في ملاذه ! أخذ يدور في الحجرات ويكلم الجدران فيرد عليه الصدى مختلطاً بصرير الصراصير ! قبل الغروب سمع طرقات على الباب! كان ابن جيرانهم يحمل له صحناً فيه حساء ! قال الصبي هامساً ، إنَّه نذر قديم تفي به أمه ، تمتم الرجل الذي شاب شعره ، ونفرت عظام صدره قائلاً بكبرياء تليق بشاعر : إنه أكل منذ وقت قصير !! وبسبب أن الطعام نذر فأنه سيقبله منهم !! وحالما انصرف الصبي ، وأغلق الباب خلفه ، أخذ يرقص فرحاً لهذه الهبة السماوية : جلس الشاعر بعد أن أتعبه الرقص على كرسيه ، وأخذ يشرب حساءه ، مغمض العينين متلذذاً بسخونته التي تنعش الروح !.

في اليوم الثاني لم يطرق على بابه أحد !! في اليوم الثالث طُرق بابه ، فتحامل على نفسه ، وهو يمسك بطنه الفارغة ، وجرجر قدميه على أمل أن يهبه الله شيئا جديدا ! ورأى إلى الخطوط على الجدار التي يخطها كل شهر ، ليعرف موعد استحقاقه الراتب التقاعدي الضئيل ، فشعر بخيبة

أمل مريرة فلا يزال الوقت مبكراً ! فتح الباب .. كانت أمامه متسولة : امرأة متوسطة العمر ، ممتلئة ، وعلى قسمات وجهها الملفوفة "بالشيلة" بقايا جمال ذابل ، قالت متوسلة : اعطني مما أعطاك الله !! ".

أراد أن يقهقه ضاحكاً ، وأراد أن يقول لها : " لو كانت هذه النفس تباع لبعتها !! " لكنه لم يضحك ، ولم يقل شيئاً ، كان كيسها ملآناً بالخيرات وأشياء أخرى تحت العباءة ! نظر إليها ، واللعاب يتساقط من فمه ، أراد أن يقول لها : الله يعطيك ويصرفها ، لكنه تذكر جوعه ، ووحدته ، وعدم امتلاكه حتى الملابس المناسبة التي يرتديها ليخرج بها إلى الشارع ليكسب رزقه من هنا وهناك ! قال متلعثماً :

"أترتاحين قليلاً .. لا أحد في الدار غيري !".

لم يكن منظره بفانيلته الرمادية المثقوبة عند الصدر ، وشعره الشائب ، وبجامته الحائلة اللون ، ووجهه الأصفر سوى رجل وحيد وتعيش وجائع ،ولأن المرأة اعتادت الدخول إلى منازل المحسنين لتأكل شيئا وتشرب ماءً ، وتأخذ راحة قبل أن تواصل مشوارها الطويل ، دخلت الدار ، ولكي يُطمئن الشاعر المرأة ترك باب الدار مفتوحاً ! وبنظرة واحدة استطاعت المرأة أن تعرف فاقة الرجل وعوزه ، قالت وهي تجلس على الأرض :

"بيت بلا امرأة خرابة موحشة !".

هز رأسه موافقاً :

"مضى زمن الزواج !! أمضيت السنوات في بناء هذه الدار ، وحين أكملتها كان الشباب قد غادر إلى الأبد!".

أخرجت المرأة غداءها : حبات طماطمة ورغيفين من الخبز ورأس بصل ، قالت وهي تفرش ذلك الطعام على طرف عباءتها :

"تفضل لتأكل معي !!".

نظر إليها بكبرياء ، متوجسا إنَّها عرفت جوعه المخزي :

"تناولي غذاءك من فضلك ، فقد أكلت كثيرا قبل مجيئك !".

وأخذ يحك ذقنه بكفه ، وتلك كامت عادته حين يرفض شيئا هو بحاجة ماسة إليه ؛ أخذت المرأة تقسم حبات الطماطة بيدها المسودة ، فقال الشاعر مشمئزاً :

"لو تغسلين يديك بحنفية الحديقة قبل أن تأكلي طعامك ، ذلك أفضل!".

تركت المرأة عباءتها ومشت بثوبها إلى حنفية الحديقة ، وأخذت تغسل يديها ، فكر الرجل : " إنَّها مازالت شابة ، لكن الزمن صعب ، صعب جداً عليها !".

ثم حين عادت سألها :

"أأنت متزوجة؟! "

"مات ، وترك لي كومة أيتام !!".

نظر إلى الوليمة المفروشة على طرف العباءة ، فأخذت معدته تقرقر ، ودون وعي منه وبتأثير الجوع الذي يشعره امتدت يده إلى الطعام ، ولأن كرسيه كان بعيدا ، فلم تصل يده إلى شيء ، بل بقيت ممدودة في الفراغ! كأنما يطلب إحسانا من شبح لا يراه أحد غيره !".

قالت المرأة :

"منذ الصباح وأنا أدور من بيت إلى بيت ، ومن شارع إلى شارع ، لأطعم الأفواه الكثيرة التي تنتظرني !".

"يساعدك الله !".

كان الجوع ، والإجهاد قد أخذا من الرجل كل مأخذ ، فكان يشعر بالتعب عند كل حركة يقوم بها ! كأنما بذل جهداً خارقاً.

قالت المرأة بعد أن أخذت لقمة ، وقدمت للرجل ثلمة خبز عليها جزء من حبة طماطة :

"خُذ لتأكل !".

امتدت يده بدون وعي منه باتجاهها ، ثم أرجع يده بسرعة كمن مسه تيار كهربائي ، وقال مبتسماً ، ساخراً من نفسه :

"تناولي غذائك هنيئاً مريئاً ! أنا أكلت قبل وقت قصير ! :

"شاركني طعامي .. الخير كثير والحمد لله !".

ضحك ، فظهرت أسنانه الصفراء ، وطرف لسانه الذي اكتسى بطبقة بيضاء من الجوع:

"لو أكلت شيئاً الآن لصعدت الحموضية في معدتي ، إنَّها ممتلئة تماماً !! الحمد لله !".

التمعت الدموع في عينيه لهذه الكذبة العظيمة ، التي كذبها على المرأة وقرقرت معدته من جديد، وامتدت يده تمسح ذقنه الذي نبتت عليه شعيرات بيض كثيرة ، أخذت المرأة تأكل طعامها :

"ما هو عملك ؟!".

تنهد الرجل ، وقال بعد صمت قصير :

"أنا كاتب ، أفضل شاعر في العالم !!".

قالت المرأة ، وهي لم تفهم عمله :

"مازلت شاباً !".

أخرجت المرأة من كيسها الملآن لفافة كبيرة ، وقالت :

"أعطاني بعض المحسنين كعكة كبيرة ، ألا تأكل منها شيئا ؟!".

نظر الرجل إلى اللفافة العظيمة ، وسعل سعلة مصطنعة ، ثم بلع ريقه ، واغرورقت عيناه بالدموع :

"خذيها لأيتامك ! إنهم ينتظرون عودتك !".

ومسح بيده حاقة ذقنه ، ولئلا تفضح عيناه رغباته العنيفة أطرق ، وأغمض عينيه :

"الوقت صعب ، وبالذات على امرأة مثلك !".

تمتمت المرأة بكلمات لم يفهمها ، وأخذت تأكل ، وقد وضعت اللفافة بأهمال إلى جانبها ، وشعر الرجل أنَّ المرأة بحاجة للماء فقد كانت تتوسله بعينيها ، إنَّها غصت باللقمة التي بلعتها ! تحامل على نفسه ودخل إلى الدار ، وخرج بعد دقائق حاملا دورقا مملوء ! بالماء من حنفية المطبخ ، وهو يتمتم مع نفسه : أي عذاب هذا يا ربي أي عذاب تضعني فيه !!" حين عاد بالدورق الملآن لم يجد المرأة ! كانت قد خرجت ، ورأى أمام عينيه اللفافة العظيمة ، وقد نسيتها المرأة في مكان جلوسها ! هجم على اللفافة وجوعه البربري يسيط على كل خلية من خلاياه ! مزق جزءاً من الغلاف بأصبعه النحيلة ، المرتجفة وسقط لعابه على الورق ، وهو يرى هيكل الكعكة البني ، وفكر بحكمته المعهودة ، وبروح الشعر التي تسيطر عليه : أنه لو يطل من الباب فسيرى المرأة ، فهي لم تبتعد كثيراً ، وينادي عليها ، ويخبرها إنَّها نسيت كعكتها العظيمة !.

ستخبره من مكانها إنها وهبته هذه الكعكة، التي منظرها يسر العيون ويفتح الآمال بقضاء يوم كامل ، وليلة بعيدا عن غول الجوع !".

تحامل على نفسه حتى وصل الباب المفتوح، وأطل برأسه فلم ير المرأة تلفت يمينا وشمالا، وحين لم يرها، قال بصوت ضعيف : "الحمد لله" !!.

لقد فزت بالكعكة ورب الكعبة ! أغلق بابه ، وأخذ بمسح كفا بالأخرى، ويتملظ كالقط ، تناول اللفافة التي تبقعت بالدهن بحرص ، وامتلأ أنفه برائحة الكاكاو ، والمطيبات الأخرى ، وسره منظر الكريم الأبيض !.

وضعها في حضنه بأناة وجلس في كرسيه الهزاز ، ونظر إليها بحب لا مثيل له ، وحالما امتدت يده إلى اللفافة ، فكر الرجل ، لو أنَّ المرأة تذكرت كعكتها ، وعادت من أجلها ، فماذا يقول لها ؟! وقال مع نفسه أنه سينكر إنَّها نسيت شيئا في بيته ! ولن يصدق أحد ما سترويه وامتدت يده المرتجفة لتأخذ هبرة من الكعكة ، لكنه في اللحظة الأخيرة توقف ، وتضاءل أمام نفسه شعر أنَّه أتفه شاعر في العالم !!.

أيأكل شيئاً لا يخصه ؟!! أيأكل ما يخص أيتاماً ؟! وتساءل بمرارة :

أتفعل ذلك حقا أيها الشاعر الحالم بجائزة نوبل ؟! استعاذ من الشيطان الرجيم ، ووضع اللفافة على الأرض ، وهيم عليه شعور من يملك ورقة يانصيب لم تفز بالجائزة الأولى بسبب رقم واحد جاء في خانة الآحاد مختلفاً! قال بذات نفسه : سينتظر لمدة ساعة ، فإذا لم تعد المرأة سقط

حق الأيتام فيها وأصبحت بكل مطيباتها وكريمها وكاكاوها ودقيقها ودهنها وبيضها وفستقها وسكرها من نصيبه لا يشاركه فيه إنس ولا جان !! أخذ يمسح بيده ذقنه بعد هذا القرار الحاسم ، وأخذ ينتزع شعيرات بيضاء كانت تستطيل أكثر من غيرها في طرف ذقنه ، وبالرغم من الألم الذي يشعره جراء ما يقوم به من هلس متعمد ، لكن ذلك الإيذاء لنفسه هو العلاج الوحيد ، الذي يستخدمه للخلاص من آلام الجوع الخرافية ، و امتدت يده الصفراء من جديد باتجاه الكعكة ، وأخذ قليلا من كريمها ، وقربه من فمه ، وفي اللحظة الأخيرة ، قال مع نفسه لائماً : أذا بدأت بالأكل فلن أتوقف أبداً !! أنا أعرف نفسي تماماً !! ذلك مخجل ، مخجل حقاً !! ".

وألقى بالقطعة الصغيرة إلى الأرض ! فجاء عصفور صغير أخذ يقفز مقتربا من مكان إلى آخر ، حتى وصل إلى القطعة الصغيرة ، ونقرها بمنقاره وطار بها فوق غصن الشجرة ! ابتسم الرجل ، وتمتم لنفسه بمرارة :

"سبحان الله ! هذا العصفور الصغير استطاع أن يقتنص رزقه ، وأنا أفضل شعراء العالم قاطبة لا أستطيع ذلك، اللعنة على الشعر الذي جعلني متسولاً !! ".

أغمض عينيه ، وكان ينتظر ، والدقائق تمر بطيئة ! فتح عينيه ، وهب من كرسيه بعد دقائق ، وقال بذان نفسه: مذت الساعة وأصبحت الكعكة

ملكي لا يشاركني فيها أحد !! .. لكنه فكر : عليّ أن أتأكد أولاً من عدم عودة المرأة لتأخذ كعكتها ! ".

فتح الباب ، وأطل شمالاً ويميناً ، وعاد فرحاً يمسح كفاً بكف ، ودون أن يغلق الباب تماماً ، أخذ الكعكة في حضنه من جديد ، وأخذ يشمها عميقا ، وانتابه حزن عميق وفكر بالمرأة من جديد : " إنَّها ربما عادت في الغد ، وطالبته بكعكتها ، فإن لم يعطها الكعكة عيّرته بأنَّه أكل شيئاً يخص أيتامها ، وأسمعت كل ذلك القول الفاضح لجيرانه ، فشعر بانسحاق لا مثيل له ، وجلس على كرسيه محطماً بعد أن أعاد وضعها في مكانها السابق ! وقال بذات نفسه :

"أية لعنة جلبت على نفسي بفتحي الباب لهذه المتسولة !! كان يكفيني جوعي ، وها أنا أجلب لنفسي محنة أخلاقية أشد إيلاماً ، وأذى من الأولى !!".

أخذ يتجوّل في داره بحركات بطيئة ، ومعدته الخاوية تئن ، وكان في كل دورة في البيت يجد نفسه أمام اللفافة العظيمة ، ولا يدري كيف تقوده قدماه إليها من جديد !! أخذ كرسيه بعيداً إلى حديقة البيت الخلفية ، لكنه بعد دقائق لم يطق صبراً على الجلوس هناك بعيداً عن كعكته ! أعاد الكرسي إلى مكانه السابق قريبا من اللفافة، وهو يقول بذات نفسه بذل شديد : يكفيني أن أراها ! ذلك يجعلني أشعر بالاطمئنان بأنني لن أموت جوعاً ! فهناك دائماً ثمة أمل !! ".

كان ينظر إليها مسروراً : كومة ضخمة من الوعود ، والمسرات والأحلام ، لفافة ضخمة مبقعة بالدهن والروائح والنداءات السرية ، وفي تلك اللحظة من السرور الخفي وعلى غير توقع للأحزان طفق الشاعر يبكي بكاء مراً ، بدموع غزيرة وشهقات لم يفعلها أحد قبله على الإطلاق ! ..

لغة العيون الخائنة

بعد جهد ومكابدة استطاع أن يفتح حساباً في البنك الوطني ، ولو لم تأت رسالة ابن عمه من خارج البلاد يطلب فيها منه فعل ذلك ، لما فتح ذلك الحساب البنكي أبداً ، فهو كما يقول عن نفسه يكره المعاملات الرسمية، ويتحاشى الأخذ والرد مع الحكومة ، وتخيفه أوراق المعلومات التي عليه أن يملأها ويضع توقيعه عليها، والتقاط الصور

الفوتوغرافية المطلوبة ، وفي الشهر الأول تلقى على رقم حسابه الجديد حوالة مالية صغيرة ،

وجاءت رسالة البنك تبلغه أنَّ مبلغاً مالياً قد وضع في حسابه ، وفي الشهر التالي تلقى حوالة أخرى وكان المبلغ المالي هذه المرة مضاعفاً ، وهكذا أخذ مبلغ الحوالة يتضاعف شهراً بعد آخر ، وأخذت أرقام الرصيد تقفز بشكل مبالغ فيه، وكان البنك لا يتأخر في إرسال تأكيداته بأنَّ المبلغ المالي في الرصيد قد قفز إلى أرقام كبيرة خلال فترة وجيزة ، قال بينه وبين نفسه: "أسأل الله أن أجتاز هذا الامتحان ويجنبني فضول الناس !! ".

كان ابن عمه تاجراً صغيراً شارك في عمليات تجارية كثيرة، وصار بفترة قصيرة من أكبر التجار ! وبارغم من اعتقاد أصحاب البنك ، أنَّه من الأغنياء الذين يعدون على أصابع اليد في طول البلاد وعرضها بسبب رصيده المالي الضخم ، الذي لا يعرف كيف تسرب خبره إلى جيرانه وأصحابه ، وكان يتساءل عمن فعل ذلك ؟! هل فعل ذلك أحد موظفي البنك أم بسبب الرسائل الكثيرة التي يرسلها البنك إليه ؟! وربما وقعت إحدى هذه الرسائل بيد أحد الثرثارين ، فتحدث عن رصيده المالي لجميع أهل مدينته وأخذ الناس بعد هذا الثراء المفاجئ يحترمونه بشكل مبالغ فيه يشعره دائماً بالإحراج ، ويسمعهم يتحدثون بينهم عن بساطة ملابسه ، وداره الصغيرة القديمة بالرغم من ثرائه ، وتقتيره على عياله ، مما اضطره أن

يخبرهم أنَّ لا مال عنده غير مرتبه الشهري ، وكل رصيده المالي في البنك هو في حقيقة الأمر أمانة تخص ابن عم له يعيش خارج البلاد! وكل معاناته خارج بيته كانت هينة لا تقاس بمعاناته مع أخل بيته إذ بعد أن عرفت أم عياله بالأمر استقبلته باسمه ، طلقة الوجه ، رشيقة العبارة ، خفيفة الخطوات ، وهي تلبي طلباته ، وقد دلقت على ثيابها قنينة عطر ، وارتدت أفضل ثيابها ، ورفعت صوت آلة التسجيل فصدح البيت بأرجائه بالموسيقى وصوت أم كلثوم ، حتى أنه في البداية اعتقد أن البيت ليس بيته ! إلا أنَّه لاحظ أثاثهم القديم ، وأنَّ المرأة الجميلة التي يراها هي زوجته ، لكن شكلها قد تغير كثيراً فقد عقصت شعرها ، وتكحلت وصنعت لها وجهاً جديداً بالأصباغ ، وشعر أنَّه في عرس حقيقي ، وقد أطعمته بيديها أفضل الأطعمة ، وكان يخيل إليه إنها تغافله بين الحين والآخر لتهمس بابنتهما الكبرى مع غمزة بالعين : "أطعم الأفواه فتخجل العيون !!" وبعد الطعام مباشرة ، وقد ازداد صوت أم كلثوم عذوبة ، وهي تغني عن الأمان في عيون المحبين فاجأته بالحدتث عن ضرورة تغير بيتهم القديم الذي يسكنونه بيت جديد أوسع مع تبديل كامل للأثاث !!.

فتح الرجل عينيه على سعتهما مندهذا ، واستنتج من دون أن يسأل زوجته إنهم عرفوا بأمر الرصيد المالي في حسابه !! لم يقل لها كلمة وهي تحدثه عن ضرورة مراعاة وضعهم بالجديد كأغنياء ، وأولاده الثلاثة يجلسون على المصطبة ، وقد نكسوا رؤوسهم صامتين ، كأنما تعرضوا طوال عمرهم لخديعة أنهم فقراء ! وأنَّ أبيهم الظالم أخفى عنهم حقيقة

غناهم ، وتركهم يعيشون في أسوأ حالات الضنك والعوز !! وكان يقرأ في عيونهم سبابا صامتا وجملة : يا لك من أب ظالم يا أبي !!.

وابنته الكبيرة كانت تنتظر على أحر من الجمر اعترافه أمامهم بالغني وقد أخبرت صديقاتها هاتفيا إنَّها ستكون لها سيارتها الجديدة ، وسيأتي لها أبوها بالمدرسين لتلقينها إجابات الأسئلة التي ستأتي في الامتحانات لتحصل على درجات التفوق !!.

حاول في البداية أن يقول لهم الحكاية من البداية إلا أن أحداً لم يصدق رواية أنَّ المبالغ الكبيرة في حسابة البنكي هي مجرد أمانة ! وكانوا يتساءلون وقد ضموا أصواتهم إلى أصوات الأقرباء ، والجيران ، والمعارف بسؤال مرير واحد يقول :

"أي معتوه في هذا الزمان يقبل أن يضع كل هذه الثروة الطائلة باسم شخص آخر حتى لو كان ابن عم له؟!!" وأخذوا ينعتونه بالبخل واللؤم، وبدأت الحرب في بيته، إذ أخذت زوجته تضع له طعامه في زاوية المطبخ وكأنها تضعه لكلب ! وأولاده أخذوا يعاملونه بجفاء كأنَّهم يتعاملون مع مريض بمرض معد ، وهم يتحدثون عن البخل الذي يذهب بالإيمان ! أما ابنته الكبيرة فقد توقفت عن الذهاب إلى المدرسة بدعوى المرض بعد أن انفضحت أكاذيبها أمام صديقاتها ، وكان الرجل يشعر أن غيني زوجته تطالبانه أن يخون أمانته ، وكذلك نظرات الحرمان واللوعة في عيون أولاده ، وأخذت العيون جميعا بلا استثناء تطالبه بالاستيلاء على المال !!

فتحمل الرجل نظرات العيون صابراً محتسباً ، كأنه في ساحة قتال ويرجو من الله في سره الفرج القريب !!.

ذات صباح استلم من ابن عمه برقية ، وبعد أن قرأها ظهر السرور على وجهه ، وشعر بالهموم تنزاح عن صدره مرة واحدة ! ارتدى أفضل ملابسه كأنه في عيد ، وتوجه إلى البنك وكعادته حين يكونه سعيداً فقد أخذ يوزع ابتساماته بوجه هذا وذاك ، وطلب من موظف البنك أن يحوّل الأموال التي في رصيده إلى بنك آخر كما طلب منه ابن عمه في برقية الصباح ، وباسم ابن عمه ذاته ! سأل الموظف بحيرة : "هل نحوّل كل المال؟!" فأجابه : "نعم" قال الموظف مرتبكاً : "رصيدك ضخم جداً!!" أجابه ، كأنما يريد أن يفرغ من هذا الأمر نهائياً: "المال ليس مالي ويجب أن يذهب إلى حيث يريد صاحبه !!" قال الموظف كأن المال يخصه ، وقد أخذ العرق الغزير يسيل من جبهته متأملا الرصيد المالي على شاشة الحاسب الآلي ! ثم تمتم بصوت خفيض : "كأنني أشترك في جريمة تريد أن تقترفها بحق نفسك وأهلك !!" تساءل الرجل متعجباً : "أي جريمة تتحدث عنها؟!" قال الموظف : "لا شيء .. لا شيء !".

همس أحد المراجعين بأذن الرجل وقد عرف المشكلة : " إنَّك تقتله ! مرتبه ضئيل ! وأنت تأمر بتحويل أموالك إلى شخص بعيد !!".

ثم رفع الموظف سماعة الهاتف ، وتكلم بصوت واطي ثم رفع إليه عينيه وطلب منه أن يذهب إلى الإدارة وهمس: " أن مدير البنك يريد أن يكلمك !!".

تمتم الرجل : "متى ينتهي هذا الأمر ؟!" مشى في الممر الضيق ودخل غرفة المدير بدا له وكأنه كان ينتظره بادي القلق والأنفعال: "هل تبعث ثروتك إلى بنك آخر ؟! وباسم شخص آخر ! هل بينكما صفقة تجارية؟!".

"لا ليس بيننا شيء ، وأنا أعيد إليه أمواله فقط !"

"من يفعل هذا – واسمح لي بقول ذلك – ليس شخصاً عادياً !! أنا لا أعذرك مطلقاً ، لأنَّك تبدو لي على قدر كبير من النباهة والذكاء !!

لكنك أيضا تبدو على قدر عظيم من الطيبة ! التي لا تعني في هذا الزمن شيئا عظيما ، إنَّها غفلة ، حماقة ، سوء تدبير ، وسذاجة – سمها ما شئت – وتذكر أنَّ ما تريد أن تفعله هو تلخيص وتركيز لهذه التسميات القبيحة !! " قاطعه الرجل : هل اتصلت بكم زوجتي ؟! فهذا كلامها ، كل الذي قلته هو كلامها ! وأقول لك ما قلته لها :

"إنَّ المال ماله يا سيدي ، ولم أكن سوى مؤتمن عليه ، وسأفعل ما يريد صاحبه ، وأن تساعدوني لأفعل ذلك!".

نظر مدير البنك إلى عيني الرجل كأنما ينظر إلى عيني رجل مجنون ، وقال بهدوء :

"نحن – كبنك – لا يهمنا البتة ما تتحدث عنه ، وهذه المسائل المعنوية لا معنى لها في هذا الزمان ، نحن نعرف اسمك ، ورقم حسابك في البنك ورصيدك المالي ، وسحب مالك من البنك وإرساله دفعة واحدة إلى خارج البلاد يمثل نكسة مالية لنا – كبنك – "وحين لم يجد المدير تجاولا من الرجل ، جلس على أقرب أريكة محبطاً، وتمتم: "سننفذ رغبتك ، لكن تذكر إنَّها أسوأ غلطة غلطتها في حياتك !! " .. ثم وقف المدير ، وأشار له أن يتبعه ، ورأى العرق يبلل صلعة المدير ، وهو يسير أمامه منكس الرأس ، وعندما وصلا إلى بهو البنك المكتظ بالحسابات والموظفين، أعطى الأمر للموظف المسئول عن التحويل الخارجي لإكمال إجراءات التحويل ! وحزَّ في نفسه أن ينتظر حتى يفرغ الموظف من اتمام ذلك الأمر الحزين أمامه ! فرجع إلى مكتبه ن وبقي الرجل ينتظر أن تعطي له نسخة من التحويل ، ولم يطمئن إلا حينما رأى على شاشة الحاسوب أن حسابه البنكي عاد من جديد إلى ذلك المبلغ المالي الصغير الذي بدأ به مع البنك أول مرة ! وحين مر من أمام الموظفين سمعهم يهمسون وينظرون إليه كأنما يرون قردا !! لكنه شعر إنَّه صار خفيفا وسيطير في أي لحظة يشاء ، وتساءل أليس هذا كافيا للفرح؟! .

وعاء الضغط

لم تكن مهمة صعبة ، إنها مجرد جولة في قدر ضخم للضغط، مغلق لا يخترقه الصوت! كانوا يقضون نهار الجمعة في التجوال في الأسابيع الماصية، والحديث عن أمور حياتهما المشتركة يستغرقهما، وأبنهما الصغير مثل قرد ينط أمامهما في دروب الحديقة ببنطاله السميك الأزرق، والحذاء الصغير في قدميه يصدر صفيرا خاصا كلما أسرعت خطواته، كانت امرأة ضئيلة ، وقد بان الاصفرار على وجهها، وبدت يدا الرجل ملوثتين ببقايا أصباغ،

وجروح قديمة مندملة، وحزوز كثيرة في جلد راحتي كفيه، وأخذت المرأة توافقه على كل ما يقوله دون نقاش ! لكنه كان يتضايق من هذا القبول

غير المشروط ، ويتمنى لو أنَّها ناقشته فيما يعتقده صحيحاً ، للوصول إلأى حلول ممكنة !.

أخذت المرأة تسرح ببصرها بعيداً ، كان شعرها جميلاً ، مرسلاً على ظهرها ، ليغطي الورود الحمراء ، المطبوعة على قميصها ، وبين الحين والحن تنظر إليه بعينيها الواسعتين ، فيشعر الرجل بمسحة الحزن التي تغطي قسمات وجهها ، وتذكر أول لقاء لهما قبل أن يتزوجا ، فقد بهرته بعينيها الوامضيتن ، لم ير شيئاً غير العينين في تلك الأيام ! فكر الرجل أنّ عليهما أن يجتازا الحديقة ليصلا إلى بغيتهما ، وثمة ورقة مدعوكة ينظر إلى العنوان المسجّل عليها بقلم رصاص بين الحين والآخر ! قال الزوج ، وهو يومئ للصغير للإبطاء في سيره :

"إنهم بحاجة إلى امرأة ورجل وطفل !".

لم تقل المرأة شيئاً ! كانت تتبع رجلها صامتة ! وقف الصغير على أرص الممر ينتظرهما ، وحالما وصلا إليه مدَّ يده باتجاه ابيه ، أمسك الأب الكف الصغيرة وسارا معاً يسبقان المرأة ! أعادت المرأة خصلة شعر سرحت على عينها اليسرى ، عبرا الشارع ، كانت الأم هذه المرة هي التي تمسك كف الصغير ، همس الزوج : " إنَّه مصدر رزق جديد ، لنتمكّن من تسديد الأقساط المتأخرة من بدل إيجار البيت ، ونشتري ما نحتاجه من الملابس للصغير !!".

أمام مبنى كبير ، أخذ الرجل يعيد قراءة العنوان المكتوب على الورقة المدعوكة التي يمسكها في يده ، ضحك الرجل : "قلت لنفسي سأجد المكان ، وها نحن قد وجدناه ! "

دخلا المبنى ، كان ثمة بوّاب يجلس على مصطبة ، حدثّه الرجل ، فاقتاد العائلة الصغيرة في ممر طويل ينتهي إلى غرفة تقع إلى اليسار ، وثمة رجل يجلس خلف منضدة ، أعطى الرّجل ورقة المعلومات ، ووقفت زوجته قريبا من باب الغرفة وهي ترتجف خوفا ! همس زوجها وهو يملأ الفقرات الفارغة على الورقة :

"إنَّها إجراءات شكلية ، لا تشعرى بالخوف منذ البداية !".

حين أكمل الزوج ملء ورقة المعلومات طلب منه الرجل أن يوقعها بإمضائه ، ففعل ! وأخذ الرجل الورقة بعناية ، وكأنه يستولي على كنز ! وطلب منهما أن يجلسا على مصطبة في الجوار ليقودهما بعد ذلك إلى وعاء الضغط !.

بدت الأضواء لعيني الزوجة باهتة ، والممر الطويل يشبه ممراً في المستشفيات ! أجلسا صغيرهما بينهما ، كان الصغير كثير الحركات ، فلم يستقر في مكانه بينهما سوى لحظات ، وحالما شعر بأبيه وأمه ينشغلان بالحديث ترك مكانه ، وأخذ يلعب في الممر ، ويحجل بقدم واحدة ، ويصدر أصواتا عالية !! قال الزوج :

"لن يطول انتظارنا".

كانت المرأة أكثر قلقاً من زوجها ، وقد أخفت الأضواء الباهتة لون وجهها المصفر ، وجعل القلق عينيها أكثر حيوية ، فأخذتا تشعان بلمعة غريبة لم يعتدها من قبل ! قالت مترددة :

"سندعهم يفعلون بنا ما يشاءون ، ولكن الصغير لن أتركه يخضع لتجاربهم !".

عاد الرجل ، واصطحبهم في ممر جانب ، ومن خلال نوافذ زجاجية واسعة تطل على حديقة كبيرة وسط المبنى، كان الوعاء الضخم الألمنيومي يتوسط الحديقة ، وثمة رجل يجلس على كرسي ، ورجل آخر يضع على المنضدة جهاز التنصت لضربات القلب ، ويقف بصدريته البيضاء المتسخة من أطرافها ، وبدا للرجل ، وزوجته أنَّ الرجل الذي يجلس على الكرسي ، هو الذي يصرف المال على هذه الماكينة واختباراتها ! كان يضع رجلاً على رجل وقد بان شعر ساقه مثل نمل كثير ! وأخذ ينظر إلى الزوجة نظرات متفحصة ! وسأل المضمد الرجل الآخر الذي بدا بوجهه الفتي ، وشاربه الدقيق ، وهو يراقب المرأة ساهماً ، وبدا أنَّه صاحب الأمر :

"أأسجل عدد النبضات ؟! "

هز الرجل رأسه موافقا! أخذ المضمد يسجل على ورقة أخرجها من جيبه عدد النبضات ، وعندما أكمل ذلك ترك الرجل الآخر كرسيه ، وفتح

بوابة جانبية في قدر الضغط ، ودلف إلى الداخل ، وأعاد غلق البوابة ! فأنتهز الزوج الفرصة ليسأل المضمد عن مدى خطورة التجربة ، فأجاب:

"إنَّها ليست خطيرة ، لكنها تستغرق وقتاً !"

أكمل المضمد بعد ذ لك ، وكأنه يقصد إسماع المرأة ما يريد قوله :

" إنَّ الوعاء معزول عزلاً جيداً ! ومهما صرخ الإنسان داخله بصوت عال فلن يسمعه أحد في الخارج !".

كان الوعاء كبيراً ، بحجم شاحنة ، وقد ألصقت على جدرانه الخارجية الخرائط الكهربائية ، وصور الأجرام السماوية ، وثمة عدد أبواب جانبية توصل إليها سلالم حديدية مثبتة على أرض الحديقة ، وفوق كل باب عُلقت صورة فاتنة ! بالحجم الطبيعي ، وهي تبرز مفاتنها بحركة ونظرة خاصة ، جامدة ، وثمة بارومترات معلقة إلى جوانب الوعاء الخارجية ، والسائل الكثيف داخلها يترجرج صعوداً و نزولاً ! قال المضمد ، وهو يقودهم صوب بوابة الواعاء الرئيسية :

سنجري التجربة عليكم أنتم الثلاثة أول الأمر ، وبعد ذلك كل واحد منكم على انفراد !".

همست المرأة لزوجها بصوت خفيض :

"لن أترك أبني وحجده عند إجراء التجربة عليه !"

سمع المضمد ما تهمس به المرأة ، فقال بطيبة :

"يمكنك أن تبقي معه !"

فتح البوابة ، ودلوفوا إلى الدالخ ، كان الوعاء من الداخل مؤثثاً ، وثمة ضوء قليل ينبعث من فانوس معلق إلى الجدار ، وحين اعتادت عيونهم الظلام ، كان الصغير يحاول الإفلات من يد أبيه ليكتشف بنفسه مجاهل المكان الجديد ، إلا أنَّ الأب لم يترك كفه الصغيرة !.

بدا الوعاء للزوج مقسماً من الداخل بعدة حواجز ، وعلى ضوء الفانوس استطاع أن يرى سريراً لشخصين ، وصورة لامرأة عارية معلقة إلى الجدار ! وسمع المضمد يقول :

"سيضاء مصباح قوي ثلاث مرات ، وسينتهي الاختبار الأول !"

أبقاهم في الوعاء المعزول ، وخرج مغلقاً الباب خلفه ! مدَّ الزوج يده ، وقبض على كف زوجته ! كانت أصابعهما ترتجف ! والصغير يناضل للخلاص من قبضة أبيه ، ولم يظل انتظارهم طويلاً ، فقد أضاء مصباح قوي ثلاث مرات وانطفأ ! وسمعوا باب الوعاء يفتح من الخارج ، ووقع قدمي المضمد على أرض الممر ، طلب المضمد بصوت متهدج من الزوج أن يصطحب ابنه إلى الخارج لتبقى المرأة وحدها ، فهمس لها زوجها :

"ألا يقلقك البقاء وحدك ؟!".

نظرت إليه بعينيها الجميلتين ، كانت ترتجف من الرعب ، لكنها ابتسمت ، وقالت بصوت خافت :

"سأحاول أن لا أخاف !!"

أغلق المضمد الباب من جديد !كان الباب محكما لا ينفذ الصوت خلاله، اصطحب المضمد الزوج ، وابنه إلى الحديقة ، وأخذ يجري عليهما الفحوص المختلفة ! ويسجل المعلومات على ورقة فوق المنضدة.

قاس طوليهما، وعرض كتفيهما ، وارتفاع عقب كل قدم على حدة ، وعدد نبضاتها، وأنفاسهما ، وقاس درجات حرارتيهما .. كل هذا والطفل يقاول الفحوص المملة التي يجريها المضمد ، وهو عند كل فحص يخشى أن يزرقه المضمد بإبرة ووجهه ينبئ عن عدم اطمئنان طفولي ، لكل حركة يؤديها الرجل ، وحين أكل المضمد كل الفحوص ، سأله الزوج ، وهو ينظر صوب وعاء الضغط الموصد :

"أتستمر التجربة على زوجتي طويلا ؟!"

كتب الرجل شيئاً على ورقة أمامه بلا مبالاة :

"بعد قليل سيضاء المصباح المعلق عند البوابة الرئيسية وسأفتح الباب لتخرج زوجتك .."

صمت الزوج لحظات ، استطاع الصغير خلالها التملص من يد أبيه وأخذ يركض في الحديقة ، ويقطع الزهور الصغيرة المتفتحة ، القريبة من متناول يده ، سأل الزوج من جديد :

"ما النفع من إجراء كل هذه التجارب وصرف هذه المبالغ الضخمة ؟! "
ضحك المضمد وقال ساخراً :

"إننا نجرب إمكانية عيش الإنسان في أمكنة ضيقة ، في وعاء للضغط ، أليس هذا سببا كافيا ؟! "

أعتقد الزوج أنَّ الرجب لا يحتمل النقاش الجدّي ، فأخذ يتابع بعينيه المصباح ، وحين أضاء بعد دقائق شعر بفرح طاغ يمتلكه ، وأشار للمضمد أنَّ المصباح قد أضاء ، فقام الرجل ضجرا وفتح الباب ! فخرجت الزوجة مذعورة ، وهي تحاول اعتياد الرؤية في ضوء الشمس ، وأخذت تنظم شعرها ، وتعيد طرف قميصها الخارج من التنورة ، وهي تشعر أنَّها مبللة ، مثل ثمرة بطيخ مفلوقة إلى نصفين ! ركض الصغير صوبها ، واستقبلها الزوج ، ورأى علة وجهها ، ورقبتها قطرات عرق ، قال لها :

"أرجو أن تكوني بخير !".

هزّت رأسها إيجاباً ، كانت يدخا تقبض على أوراق نقدية ! قال المضمد:

"اكتملت الاختبارات اليوم ! ستحضران حالما نهاتفكم ، وربما نطلب حضور الزوجة وحدها أو الرجل وحده! إنّ ذلك يتوقف على نوعية الأختبار !".

قال الرجبج هامسا لزوجته :

"أقبضت ؟!! "

فتحت كفها ، فبانت الأوراق النقدية المدعوكة مبللة بعرقها ولم تقل شيئاً ، خرجوا من البناية وأخذوا يسيرون في الشوارع المزدحمة بالناس، وبعد ذلك قطعوا شارعاً عريضاً صوب الحديقة التي مرّوا بها قبل ساعتين!.

قال الزوج :

"أكان أحد غيرك داخل واعاء الضغط ؟!"

هزت المرأة رأسها إيجاباً ، ولمعة غريبة برقت في عينيها :

"هو الذي أعطاك مكافأة التجربة ؟! "

هزت رأسها من جديد إيجاباً ! قال الزوج مخففاً :

"إنَّها اختبارات بسيطة ! إنَّهم يرمون أموالهم في الطريق !!

سنكسب مالاً كثيراً في الأيام القادمة !"

أخذت المرأة تنظر واجمة صوب أطفال الحديقة بملابسهم الملونة ، وثمة فتيات يلعبن بكرة مطاط حمراء ، وشمس هائلة الحجم مهشمة تستحمّ في ماء النهر القريب ، وتخرج أجزاؤها لاهثة لتلقي بنفسها على أوراق الشجر القريبة ، وتثقبها وتتقلب باسترخاء بين أوراق العشب ثم تنساب بملل بين أقدام الأطفال اللاعبين هنا وهناك.

دنيا أخرى

استيقظ السيد "جميل" من نومه سعيداً لأول مرة منذ أعوام كثيرة ، كان وحده في شقته وقد تق اعد من العمل منذ سنة ، أدار موجة المذياع بحركة من كفه ودخل الحمام ، ومن مكانه والماء يذرذر فوق رأسه كان يسمع صوت "ماجدة الرومي" ، كان ماء الدش دافئاً ، فكر إنّه يوم سعيد حقاً ، فالماء قد صعد في الليلة الفائتة وامتلأ الخزان فوق السطح ، وها هو يتمتع بهذا الدش الصباحي الرائع،

نشف رأسه بالمنشفة وفتح نافذته للشمسن، ففاجأته طيور صغيرة مزقزقة، في العادة حين يفتح النافذة لا يسمع سوى السباب وصراخ أطفال الجيران وكانت الشقق القريبة منه يخيم عليها صمت مريب ، فكر إنَّها دنيا أخرى حقاً ، ماذا حدث ؟

بحث في المطبخ فوجد علبة البن مملوءة وقد تركها منذ أيام فارغة ولم يستطع شراء علبة أخرى ، لارتفاع ثمنها، حاول أن يفكر من أين جاء كل هذا البن ؟، وحين اكتشف أنه من نوعية ممتازة ، لم يفكر طويلاً ، أحضر مغلاة القهوة.

كان صوت "ماجدة" يأتيه دافئاً ، قادماً من برج يمتلئ بالحياة ، جلس في الصالون يشرب فنجان قهوته متلذذاً وهو يسأل نفسه عن سر السعادة التي هبطت عليه هكذا فجأة ، سمع طرقاً خفيفاً على باب شقته وحين حوّل عينيه باتجاه الباب رأى رزمة من جرائد ومجلات تُدس له من فرجة الباب ! عقدت الدهشة لسانه فهو لم يتفق طيلة حياته مع كشك الصف على فعل هذا الأمر وليس في العاصمة كلها من يوافق على إرسال الجرائد إلى الشقق بهذه الطريقة المتحضرة ، كما وأنه ترك عادة تقليب صفحات الجرائد منذ أمضى سنوات الخدمة وأُحيل على التقاعد ، حين فتح باب الشقة لم يجد الطفل الذي دس تلك الرزمة من الجرائد وقال في نفسه : حدث خطأ ما ، ثم ردد : خطأ جميل ! أخذ الجرائد وقال مع نفسه والآن ماذا تأكل في فطورك يا سيد "جميل" ؟ لكنه تذكر أن ثلاجته خاوية منذ أيام ، والنوقد المتبقية في جيب سترته بالكاد تكفي حتى يصل البنك ليقبض راتبه التقاعدي ، وابتسم فقد عرف سر السعادة التي هبطت عليه فجأة ، فاليوم هو موعد تسلمه راتبه التقاعدي، وضع حزمة الجرائد على منضدته الصغيرة وذهب إلى المطبخ يبحث عن كسرة خبز أبقاها منذ أمس، فليس من المعقول أن يذهب ويقف في الطابور الطويل في المصرف

ببطن خاوية منذ فترة طويلة ، وبحركة غير مقصودة فتح باب الثلاجة ، فأصيب بدهشة كبيرة ، كانت الثلاجة مملوءة بخيرات كثيرة : بيض كثير مرتب في درجه الخاص ، دجاج جاهز للطبخ ، عدة أنواع من الجبن المحلي والمستورد ، أنواع من الزبدة واللحم المفروم ومعلبات كثيرة مبعثرة في خزانة الثلاجة ، حبات طماطم يلهث على إحمرارها الضوء ، أغمض عينيه وفتحهما من جديد وحين رأى ذات المنظر الذي رآه أول مرة ، لم يسأل نفسه من أين جاءت كل هذه الأشياء الثمينة ، بل مد يده بلهفة يتحسس الأشياء ولشدة حرصه على معرفة ما يراه هو الحقيقة ، أمسك بيضة من البيض الكثير بقسوة فانكسر قشرها الرقيق وسال سائلها الشفاف وألمح الأصفر والتصق بعضه بأصابعه ، شعر بفرح عجيب ينتابه وهو يلعق أصبعه فتأكد من أن ما رآه حقيقة وليس حلماً .

أخذ بيضتين ولكن حين اطمأن إلى امتلاء الثلاجة بالبيض أخذ بيضة ثالثة وفكر ، أهو خطأ آخر ؟ أم هناك من يعبث به ، لم يجهد نفسه بالتفكير أخذ لحما معلبا وقطعة خبز كبيرة ، وقال مع نفسه : سأجعلها وليمة ملكية! أخذ يأكل طعامه متلذذاً وهو يقلب صفحات الجرائد ويده تمتد إلى جهاز المذياع وتلعب بموجته كانت كل إذاعات الدنيا تبث أغنيات فيروز وماجدة الرومي، والموسيقى الصباحية وأصوات مطربات جديدات يغردن للصباح والحب والحياة ، شعر أن صمة خطأ ما حصل في العالم حوله ولا يزال مستمراً ، ربما حصل ذلك أثناء نومه ، الغريب في الأمر أن الجرائد تمتلئ بإعلانات ملونة عن أشياء رائعة ، بأسعار رخيصة جدا لا

يصدقها العقل على الإطلاق ، مثلاً ، سيارة مارسيدس من أحدث طراز ومبلغ بيعها الإجمالي ألف دينار لا غير، وصاحب معرض السيارات يشكر زبائنه إن استطاعو أن يدفعا مبلغا إضافيا قدره عشرة دنانير عن فترة صيانة لمدة ستة أشهر ، فكر السيد "جميل" بأن ثمة أخطاء في الإعلان ، فالألف دينار تعني مليونا وقد أخطأت مكائن الطباعة في طبع عدد الأصفار المناسبة ، أما العشرة دنانير فهي تعني عشرة ألاف دينار وأن ذات المكائن أخطأت مرة ثانية .. وتكررت الأخطاء في كل الصحف الصادرة وفي كل الصفحات.

استقبله الشارع ، حدائق ملونة ، وناس بمنتهى اللطف ، سمع امرأة جميلة تمتدح ذوقه باختيار ربطة العنق ، وابتسمت له فتاة في باص المصلحة ، ولا يدري من أين جاءته الجرأة ، فقال لها : "صباح جميل" : فقالت بحفاوة : " أنت اللطيف ! " كاد قلبه أن يتوقف دهشة .. أممكن أن يحدث كل هذا في يوم واحد ؟ ولا يدري كيف استطاع أن يحدثها عن وحدته وعن الليالي الطويلة المؤرقة التي عاشها ويعيشها ، فقالت ببساطة: أتريد أن أجئ لأعيش معك زوجة مطيعة ؟ اتسعت عيناه دهشة ، وأكملت : لقد مللت السكن في دار الطالبات العازبات !.

ودون أن يدري أعطاها عنوانه ، ولم يكتف بذلك ، بل أخرج لها نسخة ثانية من مفتاح شقته وأعطاه لها ، فاحتفظت به في حقيبتها ، وفكر مع نفسه إنها مجنونة ، لكنها جميلة جداً ، كان باص المصلحة فارغاً ، ولم يكن

غيرها في السيارة ، والغريب في الأمر أنها كانت سريعة ولا صوت مميز لها ، وفي المواقف لا يصعد إليها أحد وذلك أثار استغرابه فهو يعرف أن باص المصلحة يمتلئ بالناس كل يوم حتى يكاد أن تخسف به الأرض ، وفكر إنها دنيا أخرى غير التي عاشها بالأمس ، لا يدري كيف أتته الجرأة فطبع قبلة خفيفة على أصابع يده ، وأرسلها لها في الهواء كما يفعل العشّاق ، وهو يتركها ، فقد وصل منطقته ، ورآها من وراء الزجاج تلوح له بيدها ، تقول أنها ستراه في الشقة بعد أن تنهي محاضراتها في الكلية !.

في المصرف لم يكن أمام شباك القبض سواه ، ووجد بدل المرأة المسنة التي تسلمه راتبه التقاعدي كل شهر مع تكشيرة بشعة فتاة جميلة ، كما وأن الطابور الطويل من العجائز الذي يصادفه كل شهر اختفى ، فدمدم مع نفسه أين ذهب الناس الذين يملأون هذه الباحة كل شهر ويخنقوني برائحة تبغهم الرخيصة ، وعطر الأعشاب الذي يدهنون به شعر رؤوسهم ؟! أخذت منه البطاقة وأعطته حزمتين من الأوراق المالية ، اعتقد في البداية أن ثمة خطأ آخر قد حصل ، فقال لها جاداً :

"راتبي لا يتعدى المئة دينار ! فما قضية هذه الآلاف التي تغدقينها.

فقالت جادة : "إنه راتبك يا سيد "جميل" !".

ودفعت حزمتي الأوراق المالية بيدها البضة صوبه :

"كل رزمة تحتوي خمسة آلاف دينار !"

راجعت أوراق المصرف التي أمامها لتتأكد وقالت :

"عشرة آلاف دينار راتبك! ما الخطأ ؟ هذا المبلغ أمامك بالكمال والتمام !".

نظر إليها مشدوها ، كأنما يتحقق من قسماتها إن كانت تمزح معه أو تعبث به ، لكنها بدت جادة كل الجد ، ابتسمت من جديد وقالت مداعبة :

"أتريد مالك ، أم تريد أن تتبرع به لجمعية المسنين ؟!".

فكر إنه خطأ آخر ، يوم مليء بالأخطاء وتمتم بصوت واضح : أي جمعية ؟ أنا أولى بمالي!

أخذ المال بحرج وهو يتلفت كأنما يسرق مالاً لا يخصه وفكر : كم من الزمن يستغرق استقطاع هذا المبلغ من راتبه بعد أكتشاف هذه الزلة العظيمة في حساباتهم وعبأ المال في جيوبه وخرج من المصرف لا يلوي على شيء! كان السوق مملوءا بأشياء مدهشة ، والأسعار منخفضة إلى درجة اعتقد السيد "جميل" إنها تباع مجاناً وأن ثمة مؤامرة كونية تحاك ضده وحالما سيمد يده لشراء حاجة سيمد له البائع لسانه ساخراً من عقله الخرف! وبجرأة اشترى أشياء كثيرة من السوق وأخذ الكيس الذي يحمله يزداد ترهلاً فأبد له بكيس آخر وضعه على ظهره وفكر إنه اشترى كل هذه الأشياء الثمينة بأقل من ربع دينار ! خطأ آخر كبير.

وتمتم : الجنون ينتشر بشكل لا يصدق!

كان الناس يمرون قريبا منه مثل أطياف مهذبة ، بملابس جميلة وسحنات موردة حتى ظن إنه رأى لبعضهم أجنحة يخفونها تحت ملابسهم وهو يمر بهم ممتلئا بالنشاط والحيوية وعدم تصديق لما يجري حوله ، حاول أن يسأل أحدهم عما يجري فأجابه الرجل غاضباً ، الأسعار اشتعلت تماماً والسوق أصبح لا يطاق وأخذ الرجل يدمدم حاقناً ! فكر السيد "جميل" أن الرجل مصاب بمس من الجنون ، كل هذه البضائع الرخيصة ويقول أن أسعار السوق مشتعلة ؟ وأخذ الرجل يحدثه عن انهيار أسواق المال في العالم ، وإقفال معظم بورصات العواصم الكبرى وانخفاض أسعار نفوط الشمال إلى درجة الصفر دولار وحين سأله عن معنى ذلك أجاب الرجل أن النفط يباع مجاناً منذ أمس ! فتأكد السيد "جميل" أن من يحادثه قد جُن وأن ما يقوله ليس إلا هذر مجنون لا غير ، ومن جديد قال الرجل بلهجة العارف : سعر البرميل من النفوط الثقيلة يباع منذ فجر أمس ببنس واحد وهو ثمن أجور عمال النفط والشحن ! وسأله السيد "جميل " بذكاء : مادام الأمر كذلك فلماذا يبيعون نفوطهم إذن ؟.

قال الرجل ببديهية حاضرة: إن لم يفعلوا ذلك سيتوقف قطاع كامل من الناس عن العمل ، وذلك ما لا ترضاه الحكومات ولا الشعوب ، فتمتم السيد "جميل" : كل هذا يحصل في ليلة واحدة ! وفكر مع نفسه يبدو أنني لا أفهم شيئاً في نظريات الاقتصاد ، إنها نظريات حديثة أكثر مما ينبغي ..

دخل مطعماً فأكل أكلاً لا تفعله إلا الوحوش الكاسرة ، وكان يتعمد اختيار اللحميات ومن اللحم الأحمر حصة الأسد والأبيض حصة عشرة رجال ، مسلوقا ومقليا ومشويا وعند مغادرته المطعم كان حسابه تسعة فلوس لا غير ! وأعادوا له فلساً أحمر لا يدري من أين أتى به صاحب المطعم وهو عملة قديمة منقرضة ! .

الغريب في الأمر إنه كان وحده في المطعم وثلاثة من العمال وقفوا لخدمته طوال الفترة التي أمضاها هناك وعيونهم ملأى بدموع الشكر والعرفان لأنه اختار مطعمهم لتناول غذائه !

دخل سينما لتمضية بعد الظهر هناك ، فوجد التبريد في الصالة لطيفا ولم يكن ثمة غيره في قاعة العرض ووجد عند قدميه البواب وقد خلع له حذائه وأخذ يطقطق له أصابعه وهي عادة جديدة لم يسمع عنها من قبل ، كان الفيلم رومانسياً هادئاً والأبطال فيه يتحركون بتلقائية وتحبهم منذ أول مشهد تراه ، فأخذته غفوة طويلة بعد الوجبة الدسمة التي تناوله وحين استيقظ كان الفيلم قد انتهى ، أخذ كيسه الذي أودعه قريبا من باب الخروج وانصرف إلى محطة الباصات القريبة ، كان الباص بانتظاره ، وحالما صعد انطلق به ،كأنما كان السائق ينتظره منذ ساعة ، فكر مع نفسه يبدو أن أسواق البورصة كانت العدو الرئيسي لرفاه سكان المعمورة ، الحمد لله بعد أن اغلقت أبوابها ومضت في حال سبيلها ، والحمد لله ثانية وثالثة لانخفاض أسعار النفوط حتى الصفر دولار ، فأصبح ركوب باص المصلحة

مجاناً وأخذ يبرر ذلك لنفسه مادام الناس يحصلون على سيارات جديدة باثمان رخيصة وبالتقسيط المريح ، والإطارات و المواد الاحتياطية بسعر علبة ثقاب ، فلماذا لا يكون الركوب مجاناً ؟ وبعد أكلة الظهر المرعبة شعر إنه سيبقى عدة أيام شبعانا وسيتقزز من رؤية اللحوم لفترة طويلة !

دخل شقته فوجدها مرتبة ، نظيفة ، وثمة عطر غريب فيها ، ورأى حقيبة نسائية على المنضدة وسمع فتاة الصباح وهي تنادية :

"أتناولت طعامك في السوق ؟ إنني أعدُ عشاء فاخراً لم تذق مثله منذ أعوام !".

أيقن السيد "جميل" أن الفتاة أوفت بعهدها وجاءت ، شعر بفرح أسطوري وقال : خطأ آخر كبير حدث في هذا اليوم المبارك! :

وتمتم بصوت دفين يا الله حين تقبل عليك الحياة ثم قال بصوت مسموع : قررت أن أتزوجك ، سنعيش معاً ، صحيح أنا أكبر منك سناً لكنني أكثر خبرة ومعرفة بالحياة ، خرجت الفتاة من المطبخ وردة مشرقة والمريلة البيضاء جعلتها أكثر جمالاً وفتوة ، وطبعت قبلة على خده وقالت سأتصل بالمأذون ليعقد قراننا هذه الليلة ، وقبل أن تدير جرس الهاتف ، قالت مرتبكة ، هناك مشلكة صغيرة علينا حلها قبل أن نتزوج!"

"وما هذه المشكلة يا عزيزتي ؟! "

"عليك أن تتصل بأهل الميت الموجود في غرفة نومك !"

صاح السيد "جميل" مرعوباً :

"ميت في غرفة نومي ؟!"

هزت رأسها إيجابياً ، تقدم من غرفة النوم وفتح الباب فوجد فوق فراش نومه جثة وعلى وجه الجثة انطبعت إمارات شجون وأحزان ومعاناة لا حدَّ لها ، وتمتم مع نفسه : يا الله متى حدث ذلك ؟! وسمع الفتاة تقول له: أتعرفه ؟! .

أراد أن يقول لها وهو يجهش باكياً : كيف لا أعرفه ؟!

صمت بصعوبة وخرج من الغرفة وأخذ يتصل بالتليفون مبلغاً عن وفاة السيد "جميل" ! سمع الفتاة تقول وهي تفرقع بالأطباق من داخل المطبخ :

"يبدو أن المرحوم لم يذق طعاما منذ عدة أيام !

ما أشد نحافته واصفرار وجهه !".

قال السيد "جميل" وهو يشعر بالحزي : " أجل .. أجل ، كان من أكثر الناس شجوناً وجوعاً ووحدة ! لم أرَ في حياتي من هو أشد منه عوزاً وكبرياء ! كان يحلم بزوجة تشاركه وحدته ولقمة دسمة ومجتمع أكثر حضارة، فلم يحصل على شيء ، ومات وفي قلبه حسرة كبيرة وإحباطاً لا حدَّ له ، لقد رجع إلى ربه الكريم وسيجد عنده الأشياء التي افتقدها!".

قالت الفتاة : لديه أشياء كثيرة ثمينة لماذا لم يبعها ويعيش بثمنها ؟!

فقال : كان يستحي من الوقوف في الأسواق لينادي "على أشيائه الشخصية من أجل لقمة يأكلها ! إنه لا يفعلها أبداً !" كان يعرف أرقام هواتف كل معارف السيد جميل تقريباً وكل خصوصياته ! بدا صمته حزيناً وهو يبلغ الأهل واحداً واحداً ، مدعياً أنه من أقرب الأصدقاء للمرحوم ، وكان يشعر بثقل المهمة التي يقوم بها، لكنه الأمر الذي يجب أن يفعله ، ليبتدئ حياة سعيدة في دنيا أخرى ! ..

المؤلف

فيصل عبد الحسن

كاتب وصحافي عراقي

له المجموعات القصصية المطبوعة :

العروس –قصص- بغداد 1986،

ربيع كاذب –قصص- بغداد 1987 ،

جنود ــ قصص ــ بغداد 1988

أعمامي اللصوص –قصص - القاهرة 2002

بستان العاشقين ـ قصص ــ طبعة أولى ـ بغداد 2016

وللكاتب ست روايات منشورة :

الليل والنهار بغداد1985

أقصى الجنوب..... بغداد 1989

عراقيون أجناب ..... الدار البيضاء 1999

تحيا الحياة ..... لندن 2014

سنوات كازابلانكا..... لندن 2015

أوكسجين للموتى..... بغداد 2016

وله روايتان قصيرتان :

(سنام الصحراء) نشرت في مجلة الأقلام العراقية 1983

و(فردوس مغلق) نشرت في مجلة الطليعة الأدبية عام 1984

· نشر الكاتب عشرات القصص ومئات المقالات والبحوث في الآداب والفنون والفكر في الصحف والمجلات العراقية والعربية.

· قصصه تدرس في كلية الآداب جامعة قار يونس الليبية.

· ترجمت قصصه ومقالاته إلى الانجليزية والروسية والفرنسية .

· صارت روايته الليل والنهار المنشورة عام 1985 مبحثا لرسالة الدكتوراه في الآداب في جامعة المستنصرية العراقية عام 1987

· صارت روايته عراقيون أجناب الصادرة عام 1999 مبحثا لرسالة دكتوراه في الآداب جامعة المستنصرية العراقية عام 2004

*** ولد الكاتب في البصرة عام 1953**

***نشر أولى قصصه ومقالاته عام 1973 وهو لا يزال طالبا في الثانوية.**
*** فازت قصته الطير بالجائزة الأولى بمسابقة ثانويات العراق العام 1973**
*** أكمل دراسته الجامعية في جامعة البصرة 1974-1978 – وحصل على بكالوريوس من كلية الهندسة عام 1978**
*** أكمل عدة دورات في الاعلام والصحافة ووسائل الطباعة والمنشورات.. في البصرة وبغداد 1980-1984**
*** عضو اتحاد الأدباء العراقي منذ عام 1984**
***عضو نقابة الصحفيين العراقيين منذ عام 1987**
*** غادر العراق عام 1995 وتنقل في عدة دول عربية من بينها الاردن وليبيا وتونس ومصر وأقام في المملكة المغربية منذ عام 1997**
*** عمل مراسلا ثقافيا لجريدة الزمان الدولية ولمجلة الزمان – مقرها في بريطانيا للفترة: 1997-2014**
*** وعمل مراسلاً ثقافياً لجريدة العرب الدولية 2015 ولايزال.**
*** عمل مراسلا ثقافيا للعديد من الجرائد العراقية كالأهالي الأسبوعية والمنارة النصف أسبوعية ومجلة السينما، وجريدة الصباح، وجريدة العدالة، خلال الفترة: 2005-2011**
*** الكاتب العام لجمعية الرافدين العراقية في المغرب خلال الفترة: 2005- 2011**
***رئيس فخري للعديد من النوادي الثقافية في المغرب منها منتدى 2100 في الدار البيضاء منذ عام 1998.**
*** إيميل الكاتب:**
faisal53hasan@yahoo.com

الفهرس

الجزء الأول

1 – العين **7**

2 – الجثة **15**

3 – أعمامه البخلاء **25**

4 – أعمامي السبعة **37**

5 – أعمامي المقلّدون **47**

6 – أعمامي اللصوص **57**

الجزء الثاني

1 – الكلبة التي صارت نمراً **67**

2 – المضحكة **79**

3 – في ظهيرة قائظة **87**

الجزء الثالـــث

1 – اللفافة العظيمة **99**

2 – لغة العيون الخائنة **111**

3 – وعاء الضغط **119**

4 – دنيا أخرى **129**